توفيق الحكيم

ليلة الزفاف

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٤٢٧٧٢
المطبعة النموذجية
١ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

توفيق الحكيم

إلى الفنان الموهوب
والمخرج النابه شادى
عبد السلام
مع التحية والإعجاب

ليلة الزفاف

توفيق الحكيم

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز - ت ٤٢٧٧٧٢
المطبعة النموذجية
٦ سكة الشاورى بالحلمية الجديدة

كتب للمؤلف ... نشرت باللغة العربية

١ — محمد ١٩٣٦
٢ — شهرزاد ١٩٣٤
٣ — عودة الروح ١٩٣٣
٤ — أهل الكهف ١٩٣٣
٥ — تحت شمس الفكر ١٩٣٨
٦ — أشعب ١٩٣٨
٧ — عهد الشيطان ١٩٣٨
٨ — براكسا: أو مشكلة الحكم ١٩٣٩
٩ — راقصة المعبد ١٩٣٩
١٠ — نشيد الإنشاد ١٩٤٠
١١ — حمار الحكيم ١٩٤٠
١٢ — سلطان الظلام ١٩٤١
١٣ — من البرج العاجى ١٩٤١
١٤ — تحت المصباح الأخضر ١٩٤٢
١٥ — تأملات فى السياسة ١٩٥٤
١٦ — بجماليون ١٩٤٢
١٧ — الأيدى الناعمة ١٩٥٤
١٨ — لعبة الموت ١٩٥٧
١٩ — حمارى قال لى ١٩٣٨
٢٠ — أشواك السلام ٧٥١٩
٢١ — رحلة إلى الغد ١٩٥٧
٢٢ — رحلة الربيع والخريف ١٩٦٤
٢٣ — يوميات نائب فى الأرياف ١٩٣٧
٢٤ — عصفور من الشرق ١٩٣٨
٢٥ — سليمان الحكيم ١٩٤٣
٢٦ — زهرة العمر ١٩٤٣
٢٧ — الرباط المقدس ١٩٤٤
٢٨ — شجرة الحكم ١٩٤٥
٢٩ — الملك أوديب ١٩٤٩
٣٠ — مسرح المجتمع (٢١ مسرحية) ١٩٥٠
٣١ — فن الأدب ١٩٥٢
٣٢ — عدالة وفن ١٩٥٣
٣٣ — أرنى الله ١٩٥٣
٣٤ — عصا الحكيم ١٩٥٤
٣٥ — التعادلية ١٩٥٥
٣٦ — إيزيس ١٩٥٥
٣٧ — الصفقة ١٩٥٦
٣٨ — المسرح المنوع (٢٠ مسرحية) ١٩٥٦
٣٩ — السلطان الحائر ١٩٦٠
٤٠ — يا طالع الشجرة ١٩٦٢
٤١ — الطعام لكل فم ١٩٦٣
٤٢ — سجن العمر ١٩٦٤
٤٣ — شمس النهار ١٩٦٥
٤٤ — مصير صرصار ١٩٦٦

كتب للمؤلف نشرت فى لغة أجنبية

شهر زاد	ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لـكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيلز إيديسيون لاتين) وترجم إلى الانجليزية ونشرت مختارات منه فى دار النشر (بيلوت) بلنـدن ثم فى دار النشر (كراون) بنيويورك فى عام ١٩٤٥
عودة الروح	ترجم ونشر بالروسية فى لينتجراد عام ١٩٣٥ وبالفرنسية فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار «فاسكيل» للنشر، وبالانجليزية ، نشرت مختارات منه فى لندن عام ١٩٤٢
يوميات نائب فى الأرياف	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وترجم ونشر بالعبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الانجليزية فى دار (هارفيل) للنشر بلندن عام ١٩٤٧ وترجم إلى الإسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥ وترجم ونشر بالألمـانية عام ١٩٦١ وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١
أهل الـكهف	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالـكوليج دى فرانس ثم ترجم إلى الايطالية بروما عام ١٩٤٥ وبميلانو ١٩٦٢ وبالأسبانية فى مدريد ١٩٤٦

تابع الكتب التى نشرت باللغة الأجنبية

عصفور من الشرق	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى . وأعيد نشره فى باريس عام ١٩٦٠ فى طبعة جديدة .	
عدالة وفن	ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس بعنوان « ذكريات قضائى شاعر » عام ١٩٦١ .	
بجماليون	: ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠	
الملك أوديب	: » » » » » » »	
سليمان الحكيم	: » » » » » » »	
نهر الجنون	: » » » » » » »	
يعرف كيف يموت	: » » » » » » »	
المخرج	: » » » » » » »	
بيت النمل	» » » » » » » وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٢	
الزمار	: ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠	
مشكلة الحكم	: » » » » » » ١٩٥٤	
السياسة والسلام	: » » » » » » »	
الشيطان فى خطر	: » » » » » » »	
بين يوم وليلة	» » » » » » » وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣	
العش الهادئ	: ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤	
أريد أن أقتل	: » » » » » » »	

(٦)

تابع الكتب التى نشرت باللغة الأجنبية

الساحرة	: ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤
دقت الساعة	: » » » » » » »
أنشودة الموت	» » » » » » » وبالأسبانية فى مدريد عام ١٩٦٣
لو عرف الشباب	: ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٤
الكنز	: » » » » » » »
رحلة إلى الغد	: » » » » » » ١٩٦٠
لعبة الموت	: » » » » » » »
السلطان الحائر	» » » » » » » وبالإيطالية فى روما عام ١٩٦٤

(الترجمات الفرنسية عن دار نشر «نوفيل إديسيون لاتين» بباريس)

مقدمة

بعض القصص التى يضمها هـذا الكتاب قد بنى على حوادث وقعت بالفعل فى مجتمعنا ، كما أن بعضها بنى على ما يحدث فى الحياة الإنسانية .
وهناك فرق بين تصوير المجتمع وتصوير الحياة ، فمصور المجتمع لابد أن يتقيد بمـا رأى وشاهد وعرف ، إذا أراد أن يكون صادقاً ، فلا ينبغى له التعرض لبيئة أو طبقة لا يعرفها .

ملاحظة الواقع شرط من شروط التصوير الاجتماعى ... أما تصوير الحياة فأمر آخر ، لأن الحياة أشمل من الواقع ... فالحياة الإنسانية يدخل فى نطاقها الواقع وغير الواقع ، لأن حياة الإنسان ـ على خلاف حياة النبات والحيوان ـ لا تقف عند حد الوجود المادى . . . بل هى تشمل الوجود فى مختلف نواحيه ، المنظورة وغير المنظورة ، المادية والروحية .

ولعل سمو قصة « هاملت » لشكسبير راجع إلى إحاطتها الكاملة بالحياة البشرية ، فى غرائزها ومشاعرها وخيالاتها وأشباحها وتفكيرها ، فيما هو كائن على الأرض وما هو غير كائن إلا فيما بعد الموت ...

حياة الإنسان هى أعجب ما فى الخليقة لأنها أوسع ما فى الخليقة .

والقصة القصيرة ، باعتبارها لوناً من ألوان الفن ، يجب أن تتناول ذلك كله فيما تتناول من شئون الإنسان فى مجتمعه وحياته ... ومهمتها فى ذلك عسيرة ... لأنها فن اقتضاب وتركيز ، شأنها فى ذلك شأن المسرحية والقصيدة .

وهذا التركيز هو الذى قد يجعل منها فن المستقبل ـ فى رأى بعض أهل الأدب العالمى اليوم ـ ذلك أن أدب المستقبل لن يحتمل الإسهاب... وقارئ اليوم والغد يكاد تكفيه اللمحة الخاطفة لإدراك الصورة الكاملة،

وتكاد تغنيه الإشارة عن الإطناب فى العبارة ...

فالقارئ الحديث الذى يعيش فى عصر الطائرات النفاثات لن يطيق طويلا الإسترخاء فى مطالعة مئات الصفحات ليحيط بصورة من الصور أو شخصية من الشخصيات . . . كما أن وجود الراديو والتلفزيون لن يتيح وقتاً لقارئ ينفقه فى مطالعة كتاب طويل إلى جوار المدفأة ، كما يقول الأوروبيون . . . فإن ركن المدفأة الذى ترعرعت فى كنفه القصص الطويلة لأمثال بلزاك ، وفلوبير ، ودستوفسكى ، وتولستوى ، وسكوت ، وديكنز ، وغيرهم ، هذا الركن لم يعد يحتله الكتاب وحده الآن كما كان فى الماضى ... بل يشاركه فيه اليوم صناديق الفن الصوتى والمرئى وبرامج مختلفة من مسموع ومنظور ...

أترى مجد القصة الطويلة قد انقضى بانقضاء القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ؟ ...

مهما يكن من أمر ، فإن طابع المسرحية والقصة القصيرة بما فيه من ضغط وتركيز وإيجاز وتلميح هو الأدنى إلى طابع العصر الحديث فى مستقبله القريب . . .

ومن يدرى ؟... فقد تدور الأيام دورتها وتصبح البلاغة فى عرف العالم القادم ، كما كانت فى عرف الأدب العربى الغابر ، هى بلاغة الإيجاز ، يفرضها على العالم اليوم عصر السرعة . . . كما فرضها قديما عند العرب الرحل سرعة تنقلهم بين واحات الصحراء ...

السرعة فى كل زمان ومكان تنمى فى الإنسان سرعة الإدراك وسرعة التلقى والاستيعاب ، فيتخذ الفن تبعاً لذلك من القوالب ما يتفق مع روح العصر والحياة . . .

ليلة الزفاف

انطلقت آخر « زغاريد » ذلك القران الميمون فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ... وزف « العروسان » إلى حجرتهما بعد أن رشا بالملح من عيون الحساد ... وأغلق عليهما الباب وصارا وحدهما أخيراً ...وقد اجتازا الأعتاب نحو تلك اللحظة التى لم تخلق مثل كل اللحظات... تلك اللحظة التى تشع كاللؤلؤة البهيجة فى تاج الزمان ... زمان كل فرد على هذه الأرض ... من الملوك إلى الصعاليك ... تلك اللحظة التى يبذل فيها ما يذل ... ومن أجلها احتشد المعارف والأصدقاء ، واحتفل الأهل والأقرباء ، ونصبت الموائد ، وقرعت الكؤوس ، ولعب الفرح والأنس بالرؤوس ، وحمى الرقص وارتفع الغناء ، وسبح الحاضرون وعاموا فى أويقات من الهناء ... جاءت تلك اللحظة ... قمة السهرة ، وقبة الحفلة ، ومحراب الليلة ... لحظة الخلوة بين العروسين... ويالها من لحظة !...

كل زوج ولا شك يذكر حيرته وهو يبحث فى رأسه عن أول كلمة يخاطب بها عروسه وقد صارا على انفراد ... أيبدأ بكلمة جدية أم كلمة فكهة ... أم كلمة عاطفية ؟... وكل زوجة تذكر ولاريب إحساسها وهى تنتظر الكلمة الأولى من فم «عريسها» !...

أما عروس الليلة فلم يبد عليها أنها تنتظر شيئاً ... فما كاد باب حجرة العرس يغلق ، حتى تركت « عريسها » واتجهت إلى منضدة الزينة ، وجلست ووضعت رأسها الجميل فى كفيها ... ورأى « العريس » منها ذلك ، فأقبل عليها يقول :

— أمتعبة أنت يا عزيزتى ؟ ... صخب العرس أزعجك فيما أرى ! ...

فلم تجب ... ولم ير العريس وجهها الذى تخفيه بيديها ، ولكنه لم يلبث أن رأى قطرة دمع تفر من بين أصابعها ، وتسقط على ثوب عرسها الأبيض ... فقال بصوت يتهدج حناناً :

— أتبكين يا سونه ؟ ! ...

فلم يسمع منها غير نشيج خافت ... فتألم لها ... انه يعلم السبب ... إن سنية وحيدة أمها ... وقد فقدت أباها منذ بضعة أعوام ... فالافتراق عن هذه الأم العزيزة التى كانت لها كل شيء ليس بالأمر اليسير ... ولعل هذه الفكرة هى التى كانت تخيم عليها طول الحفلة ... لقد كانت مطرقة واجمة ذاهلة ، قليلة الكلام نادرة الابتسام فحدب عليها ، وألصق خده برأسها ، وقال لها :

— لا تبكى يا عزيزتى سونه ... سأكون لك أما وأبا وزوجا وأخا ... ولن أجعلك تشعرين أبداً أنك فقدت شيئاً أو

فارقت أحداً ...

فابعدت رأسها عن خده ، وأرادت أن تتكلم ، ولكن الدموع غلبتها ... فبادر هو يقول لها :

ـــ لا تتكلمى ! ... إنى أعرف ما تريدين أن تقولى ... اطلقى دموعك ولا تكتميها ... هذا أمر طبيعى ... لست أخشى إلا على عينيك الجميلتين ... ولكن البكاء فى مثل هذه الحال يجلو النفس ، وعما قليل تشعرين بالراحة ، ويشرق وجهك ، كأنه شمس تسطع بعد مطر خفيف لطيف ...

فاهتزت كأن فى جوفها معركة ... ثم تشجعت وقالت والدمع فى عينيها :

ـــ أريد أن أصارحك بشىء ... هل تسمح لى ؟ ...

ـــ بالطبع يا سوتى ... بالطبع ... صارحينى بكل ما فى نفسك ... ألسنا الآن زوجين ؟ ... لا ينبغى أن يخفى أحدنا عن شريكه شيئاً ...

ـــ نعم ، من واجبى أن أقول لك ... وأرجو أن لا تتألم أو تغضب : إنى أحب شخصاً آخر ...

لفظتها بسرعة وقوة ، ثم استخرطت فى البكاء ... ودوت هذه العبارة فى أذن العريس كأنها قذيفة ، وأذهلته المفاجأة ، فلم يحس

ألما ولا غضبا ... بل لم يشعر بنفسه ولا بما حوله ... ولا بالوقت الذى مر قبل أن يتماسك ويثوب إلى رشده ، ويعى مدلول ما سمع ... وينظر فيما ينبغى أن يصنع ... وكان رجلا رزيناً عاقلا فى نحو السادسة والثلاثين ، علمته تبعات منصبه المحترم أن يزن الأمور ... فسرعان ما ضبط نفسه ، وقال بهدوء ممزوج بالمرارة والعتب المهذب :

— ألا ترين أن هذا التصريح جاء متأخراً بعض الوقت ؟ ... هل كان لديك مانع من الافضاء به إلى فى أيام الخطبة أو قبل إبرام العقد على الأقل ؟ ...

— كان يجب أن يتم هـذا القران إرضاء لأمى المسكينة ... كنت أراها أتعس مخلوقات الأرض كلما حاولت إقناعها بفسخ خطبتنا ... لقد كان أملها الوحيد ، وحلمها الدائم أن ترانى زوجة رجل مثلك ! ... ولقـد خانتنى شجاعتى فلم أجرؤ على صدمها فى آمالها ... وهى مسنة ضعيفة مريضة ... إن الله يعلم كم جاهدت كى أكتم عاطفتى وأخنق حبى ، وكم أردت آخر الأمر أن أفهم نفسى أن الماضى قد انتهى بالزواج .. وقد خيل إلىّ أن قلبى قد استجاب لنداء العقل ، لكنى الليـلة ، وقد تم الأمر ، وأمسى كل شىء حقيقة ... سمعت صرخات قلبى تهزنى هزاً وتكاد تهدم كيانى ،

«أيقنت أنى لن أستطيع المضى فى خداع نفسى ... ولا يليق بى المضى فى خداعك ...

كانت تقول ذلك وهى تشهق ببكائها وتنشج ... وأطرق العريس وفكر فيما أفضت به مليا ... ثم قال :

— تصرف سليم ، ولا غبار عليه ... ثقى أنى من جانبي على أتم استعداد لمعاونتك فيما يتجه إليه عزمك ... الحق معك ... لا يجب أن تخدعى نفسك ... استمعى إلى صوت قلبك ... وما دام حبك صادقا ... فليس لأحد عليك سبيل ... إنى أضع حريتك بين يديك منذ الآن ، وأضع نفسى فى خدمتك ، فلنتدبر الأمر معاً ... كيف نخرج من هذا الموقف أولا ؟ ... هب أنى طلقتك الليلة ، ما الذى سيحصل ؟ ... ستكون فضيحة لن أرضاها لك ، ومصدراً للأقاويل والإشاعات حولك لن ينضب ... ثم هى صدمة قاسية لوالدتك ... وأنت التى أشفقت عليها من صدمة أخف وأهون ! ... إذن ماذا نصنع ؟ ... فكرى معى قليلا ...

— أصبت ... إن طلاقى الليلة فضيحة ...

— فلنبحث عن حل غير هذا ... ابحثى جيداً ...

— ها أنذى أبحث ...

وجلس كل منهما يفكر ، وقد جعل رأســـه فى كفيه ...

وأخيراً نهض العريس صائحاً :

وجدت حلا ، ربما كان فيه الخير ، ولكنه يتطلب منك بعض الصبر ، ومنى بعض القدرة على التمثيل ... ذلك أن أطلقك بعد شهر أو شهرين ، وفى خلال هذه الفترة أ ظاهر أمام الناس ، وعلى الأخص أمام والدتك ، أنى فظ الخلق شرس الطباع وإنى أسيء معاملتك ... بهذا نعدها إعداداً رفيقاً لتحمل يمين الطلاق ... بل قد ينفذ صبرها هى فتحثك قبل انقضاء المدة على طلب الانفصال ، فإذا تم ذلك رأت بعدئذ حلمها ومحط أملها فى ذلك الذى اختاره قلبك ... ما رأيك فى هذا الحل ؟...

— مدهش !...

لفظتها وهى تريد أن تكفكف دمعها و « تنف » فلم تجد غير طرف ثوبها ... فأسرع العريس قائلا قبل أن تتمخط فيه :

— انتظرى ... انتظرى ... خذى منديلى ، ولا توسخى ثوب عرسك ، حافظى عليه للقران الآخر !...

فتناولت منديله وهى تقول :

— انك رجل نبيل ... إنى آسفة ... ما ذنبك أنت حتى أعكر عليك صفو هذه الليلة ؟ ... وماذا جنيت أنت حتى تفجع هكذا فى عروسك؟... ولعلك علقت آمالا كباراً على هذا الزواج ...

فأطرق لحظة ... ثم قال كالمخاطب نفسه :

ــ لا تذكريني ... أقصد ... لا تعلقي على هذا الأمر أهمية ...

ــ إنى متألمة لك ...

ــ لا تتألمي لى ... إنى بخير ... إنك على كل حال لست مسئولة عما وقع لى ... حظى هكذا ... حقيقة لقد وضعت فى هذا الزواج أملى ، لأنى كنت دائماً رجـــلا شحيحاً بعواطفه ضنيناً بفؤاده ... استغرقتنى حياة العمل ، فلم أعرف من حياة اللهو إلا القليل ، ولم أعط امرأة من نفسى شيئاً نفيساً ... ادخرت كل ما فى قلبى من حب للزوجة التى هى نصيبى ... كنت أتخيلها فى أوقات فراغى وهى إلى جانبى ، وأتخيل ما أفاجئها به من حدب وعطف وحب وحنان ، كدسته كدنانير البخيل على مر الأعوام من أجلها ... لكن القدر أراد أن يصيبنى فيما كنزت كما يصيب أحياناً البخلاء فيما يكنزون ... لأنه يحلو له السخرية ممن يركزون همهم فى هدف ... فيتربص بهم حتى يقتربوا منه ، فيعبث به بطرف أصبعه ، فإذا جهودهم هباء ...

ــ كل ذلك بسببى ... أنا مجرمة ...

ــ لا ... مطلقاً ... لا شأن لك بالأمر .. إن مثلى مثل ذلك الذى ظل يجمع المـال ويدخره ليشــــترى به عيناً ، فلما تم له

ذلك واشترى العين وجدها محجوزاً عليها أو مرهونة لآخر رهناً عقارياً ممتازاً لا فكاك منه ... فما ذنب العين فى هـــذه الحال ؟... الذنب ذنب الإدخار ... والبخل ... وليتنى جعلت شعارى : « انفق ما فى الجيب يأتك ما فى الغيب » !...

إن كلامك يحز فى نفسى كسكين ... لست أدرى ماذا فى إمكانى أن أصنع لك ... من يدرى ؟... ربما عوضك القدر عنى خيراً ... وجاءك الغيب بزوجة أحلامك ... انى لم أكن بك جديرة ...

— هـذا لطف منك يا سو ... يا سنية ... سنية هانم ... اعذرينى .. لم أعد أدرى كيف أناديك ...

— عجباً ... نادنى كما كنت تنادينى منذ لحظة ...

— أمام والدتك بالطبع ... أما ونحن وحدنا ... فلا حق لى ...

— لماذا ؟ ...

— لم يعد لى حق تدليلك .. أنت منذ الآن ـ كما قلت لك ـ أجنبية عنى ، ولا أدرى ماذا نصنع الآن ، ووالدتك فى البيت ، ولابد لنا من المكث فى حجرة واحدة ... اسمعى : أنت لك السرير ، وأنا لى الأرض .. ها هنا بجوار الباب فى ذلك الركن البعيد ... هيا انهضى إلى فراشك ... أنت فى أشد الحاجة إلى

الراحة الليلة ، بعد كل هذه الأحداث المثيرة لأعصابك ...

— تنام على الأرض ؟! ...

— لا يوجد وضع آخر ! ...

— هذا صحيح ، مع الأسف ، ولكن سامحنى ... أرجوك ... أهكذا أجعل ليلة عرسك على هذه الصورة غير البهيجة ! ...

— مالها ليلة عرسى ! ... إنى راض بها .. هل يتاح لكل عريس مثلها ؟ ... ثق أنه سيظل لها دائماً فى نفسى ذكرى عزيزة ...

— إنك تريد أن تنفى عنى كل مسئولية .. على كل حال الوقت الآن غير مناسب لمجادلتك ... فلأعد لك مكاناً مريحاً لمبيتك ... فأنت الذى أنهكتك ولاشك هذه المفاجأة غير السارة ... أرى فوق السرير « مرتبتين » فلأفرش واحدة منهما على الأرض ... وليكن توزيع المكانين بيننا بالقرعة ... ما رأيك ؟ ...

قال لها مبتسما :

— موافق ... إنى مطمئن إلى سوء حظى ...

ونهضت من فورها ... ونهض هو ... فتعاونا على نقل إحدى حشيتى السرير إلى ركن من أركان الحجرة ... وأخذت هى فى وضع الوسائد وتهيئة ذلك الفراش الأرضى ، حتى فرغت منه ، فطلبت إليه عملة من ذات القرش ، واتفقا على أن الذى يخرج له

الوجه ذو الصورة يظفر بالسرير ... ورمت بالقطعة النقدية فى الفضاء ، فإذا هى الظافرة ... فقال لها :

— ألم أقل لك إنى أعرف بختى ؟! ...

— إنى أخطأت الرمى ، فلنعد القرعة من جديد ...

— لا ... لا ... من فضلك ... حافظى على مبدئك : الصراحة والصدق وعدم الخداع . لقد كسبت أنت، وخسرت أنا ... فلا محل للمراوغة ولا لزوم « للحمرأة » ! ...

فقبلت على مضض ... وخرج من الحجرة إلى أن خلعت ملابسها واندست فى سريرها ، فعاد وخلع ملابسه وأوى إلى فراشه ... ومدت ذراعها البضة المرمرية إلى زر المصباح بقربها وهى تقول مستأذنة :

— هل أطفىء النور ؟ ...

— إذا شئت ... وأتمنى لك نوما هنيئاً ... ومستقبلا سعيداً مع من اختاره قلبك ... وإنى واثق من أنك أحسنت الاختيار ... ولو أنك لم تحدثينى عنه ...

— إنه ضابط ... ملازم أول ...

— وشاب جميل بالطبع ، ويصغرنى بعشر سنوات على الأقل فلا جدوى فى منافسة ... ولا أمل فى مقاومة ...

لفظها هامساً وهو يخاطب نفسه ، فسألته :

ــ ماذا تقول ؟ ...

ــ لاشيء ... أطفئي النور ... تصبحي على خير ...

* * *

مرت الأيام والزوج يمثل الدور المتفق عليه خير تمثيل ، ويشعر حماته برفق أنه ليس الزوج المثالى الذى كانت تتمناه لوحيدتها ... غير أن المشكلة التى استعصت عليه هى مسألة الحجرة المشتركة .. إن هذه الحال بينه وبين زوجته « المزيفة » لا يمكن أن تدوم على هذا الوضع ... إنه لايستطيع النوم وهى معه فى غرفة واحدة ، هكذا كأنهما غريبان ، وبينهما حيوان شهوان، بالحرمان يزأر، وبالرغبة يجأر... إنه يحس كأن أنفاسها الحارة تلفح وجهه... كل حركة منها تطرد النعاس من أجفانه ، إذا سعلت نهض يجرد نفسه من غطائه ليدثرها به ... وإذا نفذ شعاع القمر من النافذة ، قام على أصابعه يتأمل وجهها البديع السابح فى ضوئه ، ثم يسدل بعد ذلك الأستار ، حتى لا يزعجها النور ... وإذا تقلبت على أحد جنبيها تقلب هو أيضاً ... وإذا نهضت بالليل لحاجة ، تصنع النوم العميق وكتم أنفاسه المضطربة ، حتى لا تعلم أنه يقظان .. إنها فتنة دائمة نائمة فوق سرير ... ولكنها مستيقظة ثائرة ساهرة فى

جوفه ... كل شيء منها يقض مضجعه ... ويحطم أعصابه وإرادته ويجعله يضطرب في فراشه كأنه ريشة : رائحة جسدها في أنفه ، وتنهداتها اللطيفة في النوم ، وشخيرها الخفيف الهامس المتقطع ، وطريقتها العجيبة في نومها ، وهي منبطحة على وجهها ، بشعرها المتدلى ونحرها العارى ووسادتها التي تضغطها وتضمها في حضنها ... إنه لعذاب لا يستطيع أن يتحمله رجل من لحم ودم ... إنه تحمل ذلك ليلة وليلتين وثلاثا وأربع ... وكاد ينقضى الأسبوع ... ولكن المضى في ذلك لفوق الطاقة والاحتمال ... كيف يصنع ؟ ... والبيت ليس فيه للنوم غير المكتب أو البهو أو قاعة حجرتهما هذه ثم حجرة أخرى تشغلها حماته ، أيبيت في قاعة الطعام ؟... وما عسى أن يقول الخدم والحماة في هذا التصرف من عريس ؟... وحماته لن تفارقهما أبداً ... إذ ليس لها غير ابنتها ملاذاً ... لم ير إلا أن يصبر صبراً جميلا ... وأن يسرع في إنهاء مهمته ... وجعل يشتد يوما بعد يوم في إظهار غلظ طباعه . . . وحماته تتغاضى حرصاً على هناء ابنتها ... وابنتها لم تكن متقنة لتمثيل دورها ... فما كان يبدو عليها غضب من طباع زوجها «الموهومة» ... ذلك أنها كانت تعلم أنه إذا خلا بها في الليل جعل يعتذر لها عن إساءات النهار ... وانتهى بها الأمر أن صارت تسر لهذا اللون من

التمثيل كأنها طفلة، وتكاد تضحك بدل أن تغضب . وهو يغمزها بعينه ، ويحثها على التظاهر بالتقطيب ... بل كانت تغلط أحياناً وتدافع عنه أمام أمها أو الزائرين إذا وجه إلى طبعه نقد ... فتفلت من بين شفتيها كلمة « والله مظلوم ! ... »

إلى أن جاء يوم خطر فيه للزوج خاطر، وجد فيه العلاج لسهاد الليل .. ذلك أن يلجأ إلى منزل صديق قديم عزب ، يرتاح عنده وينام من العصر حتى المساء ... وأخبر حماته وزوجته أن أعمالا طرأت ترغمه على هذه الغيبة ... وصار لا يعود إلا فى العاشرة ... وأحياناً فى منتصف الليل ... ولا ضير عليه فى ذلك ، فهذا يمكن أن يدخل ضمن برنامج التمثيل لدوره البغيض ...

وعاد ذات ليلة فى الثانية صباحا ... فقد دعى إلى عيد ميلاد صديق ، وكانت ليلة بريئة فيها طرب وغناء ومزاح ... فرأى لدهشته ، زوجته تستقبله فى سريرها مستيقظة مقطبة ... لا تقطيب تمثيل ... بل تقطيب غضب حقيقى ... فلما أبدى لها العذر، وبين لها السبب ... سكتت غير مقتنعة ولا راضية ...

ومرت أسابيع ، فإذا هى تطلب إليه يوماً أن يذهب بها إلى السينما .. ورأى حماته تحبذ الفكرة قائلة :

— نعم ... اذهب يا ابنى بعروسك وتنزها معاً كما يفعل كل

« العرسان » ! ...

فرأى من واجبه أن يكون فظاً سيء الأدب ... فقال :

— ما كان ينقصني إلا هذا : أنا أخرج مع بنتك إلى السينما ؟! ...

— وما المانع ؟ ... أليست ظريفة جميلة ؟ ... إنها عروس تشرف أحسن عريس ! ...

— هذا رأيك أنت وحدك ...

— عيب يا ابني ...

— على كل حال ، ليس عندي وقت أضيعه في نزهة بنتك ...

وهنا احمر وجه الزوجة غضباً ، وقالت :

— وعندك وقت تضيعه في السهر لما بعد منتصف الليل ؟! ...

— هذا شأني ...

— لن أخرج معك في حياتي ... أبداً ... أبداً ...

وتركته وانصرفت مسرعة إلى حجرتها ... وأطرقت الحماة أسفا وألما ... أما هو فقد خرج إلى شأنه ، كما اعتاد أن يصنع في كل يوم ... ولم يعلق بنفسه شيء مما حدث ، كالممثل بعد تركه خشبة المسرح ، وقد ضرب عليها وطعن وجرح ... وعاد في المساء فوجد زوجته في سريرها ، ووجهها في وسادتها وقد بللتها بدموعها ... ولم تتحرك لدخوله ... وحسبها هو نائمة ، لولا شهيق خافت ،

ونشيج غير مرتفع نبهه ... فذهب إليها يقول :

— مالك ؟ ... مالك ؟ ...

فرفعت رأسها من فوق الوسادة ، والتفتت إليه وخيوط العبرات تلمع على خدها ... ولم تجب ... فقال لها بحنان :

— لم أرك تبكين هكذا منذ زمن بعيد ... أهو أيضاً ؟ ...

— من هو ؟...

— الملازم ...

— أى ملازم ؟ ... آه ...

لفظتها مستدركة ، ثم قالت سريعاً بنبرة عتاب مرة :

— لا ... لا تحاول التهرب من إساءتك ... بل إساءاتك المتكررة... إنى لا أستطيع أن أحتمل منك أكثر مما تحملت... هذا كثير على ... ما من امرأة تتحمل هذا من رجل ! ...

— ماذا فعلت يا ناس ؟ ...

— أتنكر أنك آلمتنى اليوم ؟...

— تمثيل طبعاً ...

— هذه حجة بالية ... إنك الآن صرت تجعل من هذا التمثيل ستاراً تخفى وراءه كرهك لى ...

— سبحان الله ! ...

— إنك الآن أمسيت تتحاشى رؤيتى أطول وقت مستطاع أتنكر ذلك ؟... إنك تنصرف مبكراً فى الصباح وأنا نائمة ، ولا تعود إلا فى الغداء ... ثم تخرج فلا أراك إلا فى العاشرة أو الحادية عشرة أو منتصف الليل ... إنى أسألك وأسأل نفسى : ماذا فى وجهى ينفرك ،أو فى شخصى يبعدك ؟...

— أهذا معقول ؟...

— أتقسم أنك لا تنفر منى ؟ ...

— أقسم أن هذا لم يخطر لى على بال ...

— لقد كنت ظريفاً معى فى أول عهدنا ... شديد العطف علىّ ... كثير الحنان ...

— وأنا الآن كما كنت ... لم أتغير ...

— نعم ... أحياناً ونحن وحدنا فى هذه الحجرة تتلطف معى ، ولكنك أمام الناس ...

— بالطبع ... أمام الناس يجب أن أكون غير لطيف ... طبقاً للخطة ...

— أى خطة !... أتعرف أنها أمست لعبة سمجة ؟ ! ...

— ولكن ! ... هذا لابد منه ...

— كان يسرنى تمثيلك أول الأمر . . . ولكنى الآن أراك

جاداً فيه . ويبدو لى كأنه حقيقة ...

— كثرة الممارسة تعلم الإتقان ...

— كنت أفضل أن لا تتقن هذا الدور ... حتى لا يخالجنى شك ... كل كلمة منك الآن تطعننى حقيقة ، وتدمينى ... يجب أن تحذر قليلا ... لم يعد الأمر فى نظرى تمثيلا ... لقد اختفت كل لفظة رقيقة . لماذا لا يمتد إتقان دورك أيضاً إلى ما يسرنى ؟... كنت تقول لى أمام والدتى « يا سوتة » وأحياناً ... « ياسوتى » .. ماذا حدث ؟ ... لماذا لا أسمع هذا النداء منك اليوم ؟ ...

— حصل تغيير فى الخطة .. نظراً لضيق الوقت ...

— ضيق الوقت ؟ ...

— ألا تعرفين ؟ ... نحن اليوم فى آخر أسبوعنا السابع ... ولم يبق أمامنا سوى بضعة أيام لنفترق ...

— بهذه السرعة ؟... أواثق أنك لم تخطىء ؟ ...

— اطمئنى ! ... إنى لا أغالط فى الحساب ... وكل يوم يمر أعده بكل دقة ...

— تعد الأيام لتعتق رقبتك ! ...

— أنا ؟ ! ...

— لم يبق إذن سوى بضعة أيام لنفترق ! ... ما أشد سرورك ! ..

حدثنى ماذا ستفعل بعد ذلك اليوم ؟... وأين ستسكن ؟ ...

— لا أدرى ... لم أضع بعد برنامجا لحياتى المستقبلة ...

— كم أتمنى أن تكون سعيداً فى حياتك المستقبلة.... ترى هل ستذكر بالخير أو بالشر أيامى معك ؟ ...

— بالخير طبعاً ...

— وهل سيكون شخصى عزيزاً عليك ! ...

— دائماً ...

— أشكرك ...

— نامى الآن هادئة البال ... لقد تأخرتِ عن موعد نومك...

وجذب الأغطية ، وغطاها جيداً ، ومست كفه وجهها عفواً ، فمرغت خدها فى يده ، كأنها قطة تتمسح فى صاحبها وأحس دفء ذلك الخد المخملى الأسيل ، فسحب يده برفق ... وأطفأ النور فى سكون ، وذهب إلى فراشه صامتاً ...

* * *

مرت الأيام الباقية مراً سريعاً، فى جو عجيب رهيب... فهى قليلة الكلام، نادرة الابتسام ، بادية الكآبة ... وكأن على وجهها من الحزن المكتوم سحابة ... تجيبه إذا تحدث بنظرة فيها أشياء ، يفهمها ويعلمها، ويهتز لها فى أعماقه كأنها قصيدة بليغة... وقد شقت

عليه مهمته ، فجعل يتحامل على نفسه ليستطيع أن يمعن فى إساءته لها أمام والدتها ...

وتهيأت أخيراً الظروف التى يستطاع فيها إصدار ذلك القرار الحاسم ، دون أن تتأثر الأم كثيراً أو تخدش سمعة الزوجة ...

جاءت الليلة الأخيرة ... فتعمد الزوج أن يعود فى الهزيع الأخير من الليل ، حتى يكون التعب قد أرغمها على النوم ، ولكنه وجدها ساهرة مستلقية على ظهرها فوق سريرها ، وضوء المصباح على وجهها الشاحب ، وكأنها تشخص ببصرها إلى السقف ... فقال لها :

— عجباً ! ... ألم تنعسى بعد ؟! ...

— كنت أنتظر عودتك ...

— لو كنت أعلم ذلك لجئتك مبدراً ...

— إنك تعلم ذلك ...

— ما هذه اللهجة المكتئبة والوجه الحزين ؟...

— ليس هناك ما يدعونى إلى الفرح والاغتباط ...

— على النقيض ... كان يجب الليلة أن تكونى مسرورة مرحة ... غداً تكونين حرة ، وتستطيعين الزواج ممن تحبين ...

— إنك تعبر عن إحساسك أنت ...

— لا شأن لك بإحساسى من فضلك ، إنى منذ خلوت بك فى هذه الحجرة ، فى ليلتنا الأولى ، وأنا لا أهتم إلا بشعورك أنت وحدك ، وموقفك ومشكلتك ؛ وقد عاهدتك على ذلك ... وأظن أنى قد بررت بالوعد ! ...

— نعم ... لقد كنت رجلا شريفاً ...

— الحمد لله ...

ووقع بينهما صمت عميق .. واضطربت فى شفتيها كلمات ، لم تجرؤ على إخراجها ... وأخيراً تشجعت وقالت :

— إذن أَزِفَت الساعة...

— أعتقد ذلك ...

— هل ... هل تحب أن تعرف شعورى الآن ... أو ترى من مصلحتك أن تتجاهله ؟... ثق أنه يشق على نفسى إحراجك ... أظن من الخير لك أن أسحب كلامى ، ولا أسألك شيئاً ... وليكن ما فى قلبى مكتوماً ، ولا يجب أن أطمع فى نبلك أكثر من ذلك ...

— أفصحى وكونى صريحة دائماً ...

— إذا طلقتنى فإنى أموت ...

قالتها سريعاً ، وأخفت وجهها فى كفها ... ولم يكن فى صدقها

خلجة شك ... وكان صوتها صوت الصدق نفسه ، لو أنه أعطى لساناً ... فجلس زوجها على حافة سريرها ، وأمسك بيدها وقال :

— اسمعى يا .. سنية ! ... من الصعب علىّ أن أنسى أنك أحببت شخصاً آخر ... ذلك الحب الذى رأيت بعينى آثاره فى وجهك ليلة عرسى ! ...

— أعلم أنك لن تغفر لى ذلك... وأحب أن تعاقبنى العقاب الذى تراه ، ولكنى أرجوك أن تصدقنى إذا قلت لك إن عواطفى نحو ذلك الشخص كانت عواطف طفلة لم تعرف بعد ما هو الحب ! ...

— إنى لا أكذبك مطلقاً ... غير أنى واثق أنك تقدرين موقفى ...

— نعم ... أقدر موقفك ... وأدرك ما يجول بخاطرك ... وأعرف السؤال الذى يمنعك أدبك من أن تسألنى إياه... ولكن أقسم لك أنه لم تكن بينى وبين ذلك الشخص علاقة تخجل أو صلة تشين ... كل ما فى الأمر أنه كان جارنا يوم كنا نقطن فى حى « العباسية » ، وكنت ككل فتاة يبهرها ذلك الزى العسكرى والقوام الممشوق ، وكان يحبينى وأحييه كلما تقابلنا فى الطريق ، وكان يحادثنى فى التليفون ... ولكنى لم أخرج معه قط ... ولم يجتمع بى على انفراد ... أؤكد لك ذلك وأحلف بكل يمين، وسيأتى

الوقت الذى تتحقق فيه صدق قولى ...

— إنى أرى الصدق فى عينيك ... وهذا يكفينى ... ولكنى أخاف من أمر آخر ... حقيقة شعورك نحوى ... هل أنت واثقة؟ ...

— كل الثقة ...

— كيف تقطعين بذلك ؟ ...

— إنك ترتاب ، لأنك لا تعرف الحب ... ولكنى أخبرك ما هو ... إنه ليس فى تلك البهرة العاجلة التى تخطف أبصارنا ، ولا الهزة المفاجئة التى ترج قلوبنا ... ولكنه شىء يتكون على مهل كالجنين ... انه ينسج فتلة فتلة ، ويربط عقدة عقدة ، كشغل « التريكو » ... هكذا يتوثق الرباط بين قلبين ... مهما تشك فى قولى ... فإنى لن أستطيع التخلى أبداً عنك ... إنك ضرورى لى ... بكل حسناتك وسيئاتك ... إنك لازم لى ، بمجرد وجودك فى هذه الحجرة ... أسمع سعالك ، ويؤرقنى غيابك ... وتسرنى عودتك ، ولو بعد منتصف الليل ، ويضحكنى بحثك فى الصباح عن جواربك تحت السجاجيد ، وعن حذائك تحت الأمتعة ، ووجهك الملطخ بالصابون وأنت تحلق ... وجرحك لوجهك بالموسى ، ونسيانك منديلك قبل خروجك ... واعتمادك علىّ لأذكرك بمحفظتك الملقاة على منضدتى . وابتساماتك الساذجة اللذيذة ، وأنا أتمطى فى الصباح

وأتثاءب ، وغضبك المفتعـــل وصياحك التمثيلى أمام والدتى ، وكلامك لى عن عملك كأنى أفهم دقائقه ... ثم نذكرك فجأة أنى لست حقيقة لك،فتبدى معى التكلف .. ثم تنسى فتنبسط وتدللنى وتلاطفنى ... وتطرى ثوبى الجديد ، ثم عاداتك فى الطعام عرفتها وتعلمتها ... فالخبز يجب أن يسخن ويحمر ، والأرز يؤكل مع الخضر ... حتى نومك ... عرفت فى أى ساعة من الليل تكون على جنبك الأيسر ... كيف تريد أن أتخلى عن كل هذا ؟ ... تلك تفاهات صغيرة ، ولكنها هى الحلقات الدقيقة الوثيقة فى «تريكو» الحب الزوجى ...

— « تريكو » ! ... ياله من تعبير ! ... لا تنسى الإبرة الطويلة من فضلك ! ... إنها خطرة ، وهى فى يدك أنت ! ...

فضحكت ضحكة رقيقة ... ثم قالت بنبرة جد :

— لا تخش شيئاً منى أبداً ...

فأطرق مليا ... ثم رفع رأسه وقال :

— سونه ... دعى لى وقتا للتفكير ! ...

— لم أسمع منك لفظ « سونه » منذ دهور ! ... لم كل هذا الخوف منى ؟ ...

— ليس منك ... ولكن على كنوزى ... كنوز البخيل التى

ادخرها فى قلبه ... نامى يا « سونه » الآن ، وفى الصباح نفكر وقد يأتى الفرج ...

وغطاها كما اعتاد أن يفعل ، وأطفأ النور ، وذهب إلى فراشه الأرضى فى ركن الحجرة ...

ولم يكد يأوى إليه ، ويسحب غطاءه عليه ، حتى سمع صوت « سونه » تثب من سريرها ... وإذا هى قد دلفت إلى فراشه ، واندست تحت الغطاء إلى جواره والتصقت به والتحمت بجسده وهى تقول :

— أنت زوجى أمام الله والناس وقلبى ، ولن تفلت من بين ذراعى أبداً ...

وطوقته وضمته ... وإذا هو يجد نفسه فى مكان الوسادة التى اعتادت أن تحتضنها ليلا ...

وكانت تلك هى ليـــلة عرسهما ، ولعلها أول مرة فى تاريخ الزواج ... يهجر فيها العروسان سرير الزفاف ، ليفترشا الأرض متعانقين ...

طريد الفردوس

— سنذهب إلى الفردوس ...

— بعد عمر طويل ... إن شاء الله ! ...

— الآن ...

قالها صاحبي المرح ، وهو يدخـل بى ذلك المساء حانة من حانات القاهرة ، كتب على بابها بلون أخضر « بار الفردوس »

وأجلسنى من الفور وجلس إلى مائدة ، يبدو أنها محجوزة له ، موقوفة عليه ... وأدار بصره فى المكان وحيا بنظرة صاحب البار واخوانه ، وبابتسامة حور الحان وولدانه ... وصفق طالباً الشراب وهو يتلو :

— قال الله تعالى . وما الحياة الدنيا إلا متاع ...

— أكمل الآية من فضلك ...

— لم يتسع فؤادى لأكثر من هذه الجملة ...

وأقبل الساقى بالأقداح ، وأراد صاحبي أن يقدم إلىَّ قدحاً ، فقلت له :

— ذنوبي قد فاضت بها كأسى فلا حاجة بى أن أزيد عليها قدح خمر ... إذا أردت أن تكرمنى فاطلب لى عشاء ! ...

وأذعن لرغبتى ... وطلب لى الطعام ، فطفقت ألتهم ، وجعل هو يرشف من كأسه ... ويقول :

— يعجبنى أن يعرف الإنسان أن له ذنوبا ... إذا عرفنا ذنوبنا عرفنا حدودنا .. وإذا عرفنا حدودنا لزمناها وأبينا أن نتعداها ... وهأنتذا قد رفضت أن تتعدى حدودك ! ... سأقص عليك قصة ثق أنها ليست من وحى شرابى ، لقد وقعت بالفعل وفى هـــذا المكان بالذات ... وإذا لم تصدقنى فسل كل هؤلاء الحاضرين ... ولكنك تعرف أنى لم أكذب عليك يوماً ...

فلم يستطع فمى المملوء بالطعام أن يجيب ... فاكتفيت بهز رأسى علامة المصادقة ... فمضى الصديق يروى قصته :

— لست أذكر هل سبق لى أن حدثتك عن ذلك الشيخ الصالح الذى يتبرك به أهل بلدنا فى الريف الشيخ عليش ... رجل ولد بعينين فى رأسه ، ولكنه لم ير بهما غير السماء ... ويبدو لنا أنه منذ نزل من بطن أمه ، وضعوه فى إناء من زجاج وختموا عليه ، حتى لا ينفذ إليه هواء البشر ، ولا تنسل إليه جرثومة من جراثيم الشر ... رجـــل لا يعرف ما هو الذنب ، ولا السيئة ولا الزلة ولا المعصية ... ما كنا نبصره إلا ساجداً أو هائماً فى ملكوت الله ، لا يفطن إلى نفسه ولا إلى من حوله ... ولا يفرق بين الناس

والهوام ... لم يؤذ إنساناً ولا بعوضة ، ولا يملك من دنياه غير مسبحة من حصى ، وغير موسى يحلق بها شعر رأسه ، وغير عمامته العتيقة ، وأطماره المهملة ، ولحيته المرسلة ... هكذا عاش ، يأكل من عشب الأرض أحياناً كأنه دابة ، ويقضم ما يلقى فى حجره أحياناً من كسرات المحسنين على غفلة منه أو سهوة ، فهو لا يسأل أحداً شيئاً ... ولا يطلب إلى الدنيا متاعاً ... إلى أن مات الشيخ ذات يوم ولم يبلغ الأربعين ... وكنت بالمصادفة فى الريف ، وأبصرته بعينى مع غيرى من الناس ، وهو ملقى فى مكانه ، مسجى على الغبراء ، وقد طرحت عنه عمامته فبدا رأسه الحليق ، كالصخرة اللامعة الملساء ، وسقطت إلى جانبه المسبحة ، وظهرت من حزامه يد الموسى ... وسكنت حركة لحيته التى ما كانت تهتز إلا لذكر الله ... وهبطت على الناس رحمة به ، فأجمعوا على أن يبنوا عليه ضريحاً ... وما تركت الريف حتى كان الضريح قائماً على جثمان الشيخ عليش ، وقد ساهمت بنصيبى فى إقامته ، وقلبى جياش بالتأثر ، ونفسى فياضة بالخشوع ... وعدت إلى القاهرة ، وعاد إلى ضعفى ، قاتله الله ... وجذبتنى قدماى إلى مكانى المألوف من هذه الحانة ... فما نحن إلا بشر ، لم يكتب لنا السمو على أنفسنا غير لحظات ... ومرت أيام ... وإذا بى أسمع جلبة من مكانى هذا ،

فاستدرت فأبصرت على هذه المائدة من خلق شيخاً رث الهيئة ، قد أحاط به خدم المحل ، يحاورونه ويحرجونه ويفهمونه أن الموضع ليس موضعه ، وأن من الخير له أن ينصرف بالحسنى ، فتتبعت المحاورة ، ثم سددت إلى الشيخ البصر ... ويا لهول ما رأيت ! ... كلا ... إنه ليس الوهم ولا السكر ولا الجنون ... بل هو الشيخ عليش بشخصه ولحمه ودمه وعمامته وأسماله ومسبحته وموساه ... وفركت عيني وطلبت فنجاناً من قهوة ثقيلة أستعين بها على اليقظه ... ثم سألت صاحب الحانة أن يمتحن عقلي ... وطلبت إلى غانية من حسان المكان أن تفحص صحوى ، فنظرا إلىّ بريبة أول الأمر ، ولكنهما خضعا لإصراري ، ولم أتركهما حتى أقرا واعترفا أني ثائب إلى رشدي ، مالك لصوابي ... فتقدمت إلى الشيخ ، ونحيت عنه الخدم ، وقلت له بصوت متهدج :

— ما اسمك أيها الشيخ ؟ ...

فما راعني إلا قوله ، بجد وصراحة وثبات :

— عليش ! ...

وكان الصوت صوته ، والنبرة نبرته ، فكدت أجن ، ومضيت أستفسر منه :

— الشيخ عليش من بلدة ...

فذكر لى اسم البلدة والقرية من ذلك الريف بما لم يدع فى نفسى ذرة من شك ...

— ساكن الضريح الذى ساهمت فى ...

— نعم ...

— وكيف تركت ضريحك وجئت ها هنا ؟... لقد أبصرتك بعينى رأسى وأنت ميت ...

— نعم ... لقد مت حقاً ... وأردت أن أدخل الفردوس ولكنهم طردونى ! ...

— الفردوس ؟! ... أيمكن أن يغلط الإنسان إلى هذا الحد ؟... ألا تستطيع أيها الشيخ الورع أن تفرق بين الفردوس الذى فى السماء ، و « بار » الفردوس الذى فى شارع عماد الدين ؟! ...

— لا ... لم يحصل منى غلط ! ... لقد صعدت فعلا إلى السماء ، وطرقت باب الجنة ، فمنعنى حارسها من الدخول ، وأعلن إلىّ أنى لست من أهلها ، ونصح لى أن أطرق باب النار ، فصدعت بالأمر دهشا حزيناً وطرقت باب النار ، فمنعنى حارسها أيضا من الدخول ، وأعلن إلىّ إنى لست كذلك من أهلها ... فحرت فى أمرى ، وصحت شاكياً ... سائلا الهداية ، طالباً البت فى مصيرى ، وأخيراً قالوا لى : ليس فى السماء موضع أرضع فيه ... لأن الدنيا معركة

بين الخير والشر ، ومبارزة بين الفضيلة والرذيلة تقـــوم فى نفس الإنسان ، فإذا انتصر الخير دخل الإنسان مملكة الخير وهى الفردوس ، وإذا انتصر الشر دخل مملكة الشر وهى الجحيم ... أما أنا فلم تقم فى نفسى معركة ، ولم يحدث انتصار ، ولم أواجه الشر لأغالبه ... فأنا فى نظرهم كالفار من الميدان ، أو الهارب من الامتحان ، فكيف يجوز لهم أن يثيبونى أو يعـاقبونى ، وأنا لم أعرض نفسى لأحـــداث الحياة ، حتى يظهر معدنها الخـير من معدنها الشرير ؟ .. انى فى نظرهم غشاش مخادع ، لجأ إلى أيسر السبل لينال الجائزة دون أن يواجه الخطر ! ... وانتهى أمرهم إلى اعلان هذا القرار فى أمرى : وهو إلغاء حياتى الأولى واعتبارها كأن لم تكن ، وطردى من السماء ، لأعيش مرة أخرى على الأرض ، بنفس جسمى وروحى وكيانى الأول ، على أن أتقـدم للإمتحان العسير وأواجه الشر وأنازل الرذيلة ليعرفوا بعد ذلك من أمرى ما ظهر وما استتر .. وألقوا بى إلى الدنيا من جـديد . بعين ثيـابى وهيئتى ، فوقعت على القاهرة ، وأنا لم أزل فريسة حزنى ويأسى من ضياع جنتى ، أُرددُ كالمجنون عن غير وعى : « الفردوس .. الفردوس ! ... » فدفعنى أحـد المـارة إلى هذا المكان قائلا لى : « ها هو ذا الفردوس ! ... » فدخلت ، وإذا بى

أجد فيه أيضاً من يطردنى منه ... حتى أنقذتنى أنت أيها الرجل الطيب ...

عجبت لقصة الشيخ ، وأخذتنى به شفقة ... وقلت له :

— لا عليك أيها الشيخ المبروك ... ما حدث لك لا يحدث لأى إنسان ... إنما هى كرامة من كرامات أولياء الله ... أن يسمح لبشر أن يعيش مرتين فى هذه الدنيا ...

ثم أنهضته برفق وأجلسته باحترام إلى مائدتى ، وقلت له :

— والآن ، ماذا تنوى أن تصنع فى حياتك الجديدة ؟...

— أواجه الشر ... إذا أردت أن تخدمنى أيها الرجل الطيب فدلنى أين أجد الشر ...

فضحكت قليلا ، وقلت :

— هذا شىء بسيط ... وإن كنت شخصياً لست بالدليل البارع فى هذا السبيل ... ولكنى أستطيع على كل حال أن أعرفك بالشر فى أهون مظاهره ...

وصفقت للساقى فحضر ... فقلت له :

— زجاجة شمبانيا لفضيلة الشيخ ! ...

فحملق « الجرسون » فى وجهى ثم تنبه وأسرع يلبى الأمر ولم يلبث أن عاد بالزجاجة غارقة فى إناء الثلج ، وفض خاتمها

الفضى ، فانطلقت السدادة كأنها مدفع ... نبه إلينا حسان الحانة ... فصوبن إلينا نظرات دهشة مذهلة ، أتبعنها ببسمات ثم ضحكات ... خافتة مكتومة لهذا المنظر الفريد فى الدهر ...

— فى صحتك ! ...

ورفعت كأسى وأشرت إليه أن يرفع كأسه ... فرفعها بيد مرتجفة ورشف منها بحذر كأنما يرشف سماً ... ولم يدر بخلدى قط أنى جرعته حقاً سماً سيسرى فى حياته الجديدة ، ويفعل بها الأفاعيل ... ولم أفطن للأمر إلا بعد أن جرع الشيخ كأسه الثالثة ... وثمل وانقلب يغنى بالتواشيح الدينية والمدائح النبوية ، ثم يسبح بأسماء الله على مسبحته بصوت السكارى ... وهذا كل ما يعرف طبعاً من غناء دفعته إليه النشوة ... فبذلت جهداً فى اسكاته ، خشية الفضيحة ... وصيانة لمقام الدين ونحن فى هذا المجال ... فاقتنع الشيخ ، وترك الغناء بهذه الأشياء المقدسة ... وتلفت ذات اليمين وذات اليسار فلمح غانية ظريفة فتنحنح وقال :

— أعطنى هذه الحورية ! ...

فأومأت إليها ، فأقبلت وجلست وأوصيتها بمداعبة الشيخ ، فداعبته ولاعبته حتى ذهبت ببقية لبه ... وخطر له وهو فى أوج انشراحه وترنحه أن يسألنى عن اسمى ، فراوغته ، فقال :

ـــ ولمــاذا أسألك ؟ ... أوتظنني أجهلك ؟ ...

ـــ أتعرفني ؟

طبعاً ... أنت رضوان ... الذى أدخلنى هـــذا الفردوس بحوره العين ... !

وقهقه ضاحكا ، ومال على الغانية يضمها ... وانتصف الليل ثم دقت الساعة الواحدة ، وأقفرت الحانة ، وأراد صاحبها أن يغلقها ... وهنا راحت السكرة وجاءت الفكرة ... ماذا أنا صانع بهذا الشيخ صاحب الكرامات ؟ ... وأين يكون مقره ومقامه ؟ ... ليس من المعقول أن أسحبه معى أو أذهب به إلى منزلى .. وليس من المعقول أيضاً أن أرده إلى ربفه وأعيده إلى ضريحه ! ... ما الحل ؟ ... أين يبيت ليله ؟ ...

وتأملت الأمر ملياً ... ثم قلت فى نفسى : « ولماذا أتعب نفسى به ؟ ماشأنى بهذا الشيخ ولى الله ؟ .. هل عينني أحد ولى أمره ؟ ... وهل قذفوا به من السماء لأحمله أنا على ظهرى ؟ . »

وهدانى الله إلى وسيلة ... أن أنقد الغانية مبلغاً لتخرجنى من المأزق ، وتبقيه معها ريثما أنصرف بسلام .. ولها بعد ذلك أن تؤويه أو تلقيه ...

وتم لى ما دبرت ، وأنقذتنى الغانية الكريمة ، وانصرفت إلى

بيتى ، وانقطعت عن هذه الحانة أسبوعا ، خشـــية أن أصادف الشيخ ، فيتعلق بى ويرغمنى على مصاحبته ومسامرته وتحمل تبعته وشأنه وهمه ومستقبله ...

ومضى الأسبوع فلم أجازف بالذهاب.. وآثرت الإتصال بصاحب الحانة بالتليفون ... فما كاد يسمع صوتى حتى صاح بى قائلا :

— ما هذه المصيبة التى نزلت علينا ؟! ...

— أى مصيبة ؟ ...

— صاحبك الشيخ ... إنه لا يريد أن يترك المحل لا ليـــلا ولا نهارا ... وكلما ناقشناه صاح فينا : لن أذهب أبداً .. المؤمن لا يطرد من الفردوس مرتين !...

— وماذا صنعتم به ؟ ...

— لا شيء ... صنعنا له صندوقا لمسح الأحذية ، وحلقنا له ذقنه ، وألبسناه جلبابا ... وألحقناه بخدمة المحل ، ينظفه بالنهار ، ويلمع أحذية الزبائن بالليل !...

— فكرة نيرة جداً ...

قلتها بكل إخلاص ، وكل إعجاب ... ولـكن هذا لم يمنعنى من تعمد الانقطاع عن الحانة زمناً آخر ، حتى يلتصق الشيخ عليش بصفته الجديدة تمام الالتصاق ، وينسى الليلة المعهودة تمام النسيان،

فلا يلحقنى من اقيباه متاعب ...

* * *

ومرت أعوام ثلاثة ... دون أن أضع قدمى فى تلك الحانه... لا تعمداً ، بل طاعة لأمر القدر ... أو قل أمر الحكومة ، فقد دس لى الحاسدون النمامون لدى رئيسى الجديد « الغشيم » اللئيم ، واتهمونى ظلماً بأنى قليل العمل ، كثير الكسل ، مدمن على السكر والعربدة وارتياد الحانات ... فما راعنى ذات صباح إلا أمر من الوزارة بنقلى إلى أقاصى الصعيد ... فمكثت هناك إلى أن أذن الله والمساعى المثمرة بعودتى ...

فما أن استقر بى الحال فى عملى الجديد بالمصلحة ، حتى شعرت بالحنين إلى حياتى الماضية ... ونشطت ذات مساء أقصد هذه الحانة، وكنت قد نسيت الشيخ عليش وما جرى له بالتمام ... فدخلت وأجلت النظر فى المكان ، فلم أجد شيئاً على حاله القديم ... كل شىء قد تغير : مائدتى المختارة ، والغانيات والساقون و«البارمان» ، وحتى مدير المحل ... لم يبق شىء كما كان سوى اسم الحانة ، فهو هو دائماً لم يتغير : « بار الفردوس » ! ...

وقفت لحظة حائراً لا أدرى أين أجلسْ ... حتى لمحت غانية من بنات الهوى ، قد اعتلت البار ... وهى بمفردها تدخن ، والدخان

مخيم حول وجهوا الأبيض المستدير كأنه السحاب حول قمر ... فاتجهت إليها ، ووقفت بجوارها وطلبت لها كأساً ولى أخرى ، وأخذت أغازلها بكلمات محفوظة مما يناسب المقام ... إلى أن قطع الحديث ماسح أحذية ، يهمس قربى : «تمسح يابك» !... فارتجفت ونظرت إليه ، وتذكرت فجأة الشيخ عليش...وقلت فى نفسى · ماذا أنا فاعل لو ظهر الشيخ بصندوقه ، وماذا أنا قائل لو جذب حذائى ليمسحه ؟.. أأدفعه إليه ، أم آباه عليه... ترفقاً به واحتراماً له؟! ...

ورفعت الغانية قدحها إلى شفتيها ، وهى تنظر إلى باب الحانة قائلة لى بقلق :

— لن أقف طويلا معك ... إنى أخاف أن يحضر فيرانى ... إنه شديد الغيرة !...

— عمن تتكلمين ؟ ...

— علوى ... علوى بك ! ...

— علوى بك !... من هذا ؟ ...

فظهر على وجهها الاستغراب ، والتفتت تحدق فى وجهى وهى تقول :

— عجباً !... ألم تسمع بهذا الإسم ؟... كل شارع عماد الدين يعرف من هو علوى !... يظهر انها أول مرة تدخل فيها البارات

والكباريهات ...

— حقاً ... منذ أكثر من ثلاثة أعوام ! ...

— لقد اقترب موعد مجيئه ... أنصحك أن تبتعد عنى بمجرد إشارتى لك بالابتعاد .. وإلا فأنا لست مسئولة عن منخارك أو أذنيك إذا أطاح بها حد الموسى !...

— يا مغيث !...

قلتها هامساً مرتعداً ... وأنا أنظر إلى الباب ... ثم خطر لى أن أبتعد بكأسى عن المرأة منذ الساعة ، دون انتظار للمقدر والله يغنينا عن قربها المحفوف بالخاطر ... ولكنى خشيت أن أبدو على هذا الجبن أمام امرأة ، لعلها ما قصدت إلا العبث بى والمزاح معى ... وتجلدت قليلا ، واستأنفت الحديث والمغازلة ... وإذا هى فجأة تلتفت إلى الباب ، كالقطة التى أحست بغريزتها حركة ... ثم أدارت لى ظهرها ، ونأت عنى بقدحها ... فأدركت أن صاحبها قد حضر ... ولقد شعرت بالفعل كأن الحانة كلها قد مستها شرارة كهرباء ... فقد ساد بغتة صمت لدخول ذلك الرجل ، شمل الحاضرين من زبائن وساقين إلى مدير المحل الجالس فوق المنصة .. فرفعت عينى بحذر وادب أتفحص ذلك الذى يسمونه « علوى » ... فرأيت رجلا أنيق الملبس ، خفيف الشارب ، لامع الشعر ، يتضوع منه

عطر الكالونيا الثمين ... وخاطب الرجل بلهجة الآمر « البارمان » تخيل إلىّ أنى أعرف هـذا الصوت ، واحتلت لأنظر إلى وجهه ملياً ... فإذا الدهش يعقد لسانى : لم يكن علوى بك هـذا غير الشيخ عليش فى قالب جديد ! ...

ولم أدر ماذا أصنع عندئذ ... هل أحادثه ؟... هل أنسحب من المكان دون أن أشعره بوجودى ؟... وتساءلت : أترضيه مقابلتى اليوم أم تزعجه ؟... ليس لى أن أبدأ على أى حال بشىء ... ولكن الظروف سرعان ما تدخلت ... فقد أراد هو أن يخرج من جيبه الخلفى علبة السجاير ... فصدمتنى يده على غير انتباه منه ... فالتفت نحوى ... وتقابلت عينانا فحملق فى وجهى لحظة ، كمن يراجع ذاكرته ... ثم ما لبث أن انفرجت شفتاه عن صيحة أذهلت الحاضرين :

— رضوان ! ...

ثم فتح ذراعيه ، وعانقنى عناقاً طويلا ... فرحاً كالطفل ، مبتهجاً كمن لقى لقية ... وهو يردد : « رضوان . . . صديق رضوان ! ... » ... وقبل أن أفتح فمى بحرف ، جذبنى من يدى وقادنى إلى مائدة فى طرف الحانة كأنما يريد أن ينفرد ويستأثر بفرحة العثور علىّ ... وصفق ينادى « الجرسون » :

— زجاجة شمبانيا ! ...

— هكذا سريعاً ؟ ! ...

— دعني أرد إليك بعض دينك ! ... أين كنت طول هـذا الزمن ؟ .. لقد بحثت عنك في كل مكان ... ولـكنك اختفيت فجأة ... هأنذا أعثر عليك الآن فاتركني أرد إليك الحسنة بعشرة أمثالها ! ...

— لست أدري هل تعتبر فعلتي حسنة ؟ ! ...

قلتها كالمخاطب لنفسي ، وأنا أجيل بصري المشدوه في كل جزء من أجزاء هـذا الكائن الذي كان يسمى فيما مضى « الشيخ عليش » ... كلا ، إن التغير الذي طرأ عليه لا يمكن أن يسمى تغيرا ولا تطوراً ولا انقلاباً .. إنه شيء لم وجد له بعد اسم .. الوجه وجهه والصوت صوته ، ولـكن اللهجة التي بها يتحدث ، والطريقة التي بها يشرب ، والأسـلوب الذي به يسمر ، والعقل الذي به يفـكر ، والنفس التي بها يشعر .. كل هـذه أشياء أراها لأول مرة ... على أن عيني الفاحصة دلتني على شيء عنده سبق أن رأيته ... طرف الموسى البارز هـذه المرة من جيب الصدر ، خلف منديله الحريري المتهدل ... ولم يدعني أستغرق في دهشتي وتأملي ... فقد رفع كأسه قائلا :

— فى صحة رضوان ! ...

فرفعت قدحى !...

— فى صحة علوى !...

وشرب كأسه كلها فى جرعة واحدة .. ثم التفت إلىّ قائلا :

— أرى أن عطشك الحقيقى هو إلى معرفة شىء عن صديقك الجديد « علوى » ! ..

— طبعاً ! ...

فأشار إلى ماسح الأحـــذية الذى يجوس بصندوقه خلال المكان وقال :

— لقد بدأ هكذا ...

ثم أخـذ صوته يخفت كلما أوغل فى الحديث ، كأنما يدلى باعتراف أو يسعى إلى مخاطبة النفس ... ثلاثة أشهر أو أربعة حمل فيها صندوق الأحذية وتعلم خلالها النشل والمقامرة والمغامرة وخدمة الغوانى ... إلى أن تجمع فى يده مبلغ من المال ... فطرح صندوقه وجلبابه ، واشترى بذلة نظيفة وصار أفنديا ... ولـكن صلته بالغانيات وحاجتهن إلى الحماية جعلتا منه فى نظرهن رجلا لا غنى لهن عنه ... ولقد تبين له بعد قليل أن هذا عمل مريح ... فقد كثر عدد المحتاجات إلى يده وحمايته ... وشاع عنه ذلك فى

هذه البيئات ، وشاهد الناس من خوارق براعته فى استخدام الموسى ما جعلهم يحسبون لغضبه حساباً ... وامتد نفوذه إلى أكثر البارات والحانات ، بمن فيها من نساء وزبائن وساقين . . . فهو الآن يرتاد أغلب أماكن اللهو ، ويطلب ما يريد ، دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض أو المطالبة ... بل هو الذى يتقاضى من أصحابها الأتاوات والمرتبات لضمان الهدوء فى هذه الحال . . . وهو أحياناً يشتط فى الطلب ، ويركب إلى التهديد وإحداث الشغب فيذعن من يذعن ، ويلجأ البعض إلى بيع حاناتهم هرباً منه وضيقاً ... كما حدث للمالك السابق لبار « الفردوس » ... هذا هو علوى ... وهذه حياته ... رواها بلهجة سريعة مقتضبة . . .

ثم التفت إلىَّ قائلا :

— والآن ما رأيك ؟ . . .

فألجمتنى الحيرة ماذا أقول ؟... وكيف أمسه بنقد وهو شارب ، والموسى فى جيبه ... ولكنى أجبته برفق :

— لقد كنت هبطت الأرض لتواجه الشر فيما أذكر وتنازل الرذيلة . . .

— ماذا تقول ؟ ...

— ألا تذكر أنهم أنزلوك إلى الأرض من جديد لتنازل الشر؟...

ـــ من الغريب انى نسيت ذلك . . . لقد استغرقتنى حياتى وجرفتنى ، فلم أفطن إلى ما حدث له .

ألم صادف الشر ؟ . ألم تر الرذلة ؟ ...

ـــ أين ؟ . . .

قالها كالتائه أو المحدق فى الظلام . فألقيت نظرة إلى الزجاجات الثلاث التى أفرغها فى جوفه ، منذ جلوسنا . ثم تأملت حاله ، فلم أجد للشراب أثراً فى صوابه هو إذن صادق فى إحساسه . لقد جرفه التيار إلى حد ألهاه حتى عن سؤال نفسه « فى أى طريق يسير » ؟ ... يا لها من جريمة ! .. إنه لم يثبت للنزال ، لقد تلاشى الشبح عملش ، وتلاشت عمامته ومسبحته بلمسة خفيفة من ظل الرذلة ... لقد رفع فى الميدان الراية البيضاء دون وعى منه ، قبل أن يفطن حتى إلى وجود عدو ومعركة ! ...

وأطرق الرجل طويلا ثم قال بذلك الصوت الخافت الصاعد من أعمق نفسه :

ـــ فى يدى المال والسطوة المتعة ولكنى مخلوق شقى !

ـــ أبدأ ضميرك يعذبك ؟

ـــ ضميرى ؟ ! أعرفه الآن يا هذا أتستطيع أن تحسن الإصغاء إلىّ ... لأخبرك ...

ــ نعم ... أخبرنى بكل شىء ... إنى أحس كأنى مسئول ...

فقاطعنى بتصفيقة قوية ينادى بها الساقى وهو يصيح :

ــ زجاجة أخرى !...

ولكن مدير المحل أومأ إلى «الجرسون» أن يتغاضى ويتصامم، وصفق علوى مرة ثانية وثالثة... فلم يجد ملبياً لندائه ، فأطلق صيحة مدوية ضج بها المكان ، فحضر إليه مدير المحل يقول :

ــ علوى بك ! ... ألا تكفى ثلاث زجاجات من الشمبانيا الفاخرة ؟... هذا كثير ! ...

ــ الكثير أذناك اللتان لا تسمعان طلبى ... سأريك أن واحدة منهما تكفيك لسماعى !...

وفى مثل لمح البصر ، استل موساه من جيب صدره... وقذف مدير المحل ... وكنت لحسن الطالع قد فطنت لقصد صاحبى ، فدفعت بكل قواى مدير المحل بعيداً عن مرمى النصل ، فنجا واستقرت الموسى فى خشبة المنصة !... وهاجت الحانة وماجت ولكن ما من أحد تحرك من مكانه ، فقد كانت لعلوى هيبة ... فتسمر الحاضرون فى مكانهم رهبة أو وهما .. وقام هو يمشى على مهل بجلال إلى المنصة ، فنزع عنها نصلة البراق وطواه ودسه خلف منديله ، وأراد أن يعود إلى مجلسه من الخوان ، ولكنى أمسكت

بذراعه وسألته بلطف أن يخرج معي من الحانة ، لنستأنف حديثنا في هواء الطريق الطلق ... فأذعن مرغماً لرجائي وخرج معي ... وهو يهمس بغضب مكتوم :

— لا يستطيع أحد أن يخرجني قهراً من هذا «الفردوس» !...

— قهراً لا ... لقد خرجت بإرادتك !...

قلتها له بلهجة التزلف والمداراة خشية من بوادره ، وتهدئة لثائره ، ثم سألته ونحن في الشارع سائران أن يمضي في حديثه ، وأن يخبرني بما كان يزمع إخباري به ... فنظر في ساعة ذهبية بمعصمه وقال :

— لا أستطيع الآن ... غداً إذا شئت ... وموعدنا في عين هذا المكان ...

— عين هذا البار ؟!... أو هذا ممكن بعد الذي حصل ؟ ...

— ماذا ؟... هذا يحصل كل يوم ! ...

* * *

لم أتمكن من مقابلته في الموعد المحدد .. فقد دعيت إلى عرس أحد أقربائي في الريف ... فسافرت ولبثت هناك بضعة أيام ، رأيت فيها العجب : ضريح الشيخ عليش أصبح كعبة يحج إليها مئات الناس من القرى المجاورة ، يحملون إليه الشموع أيام الأسواق

ويوفون بالنذور... وينوهون بكراماته العديدة فى إبراء الأمراض وقضاء الحاجات ...

ولقد أبصرت إمرأة ترفع طفلها العليل بيديها ليلمس شباك الضريح ، ويتلقى من مس حديده البركة ، وهى تصيح من أعماق قلبها :

— يا شيخ عليش !... يا ولى الله يا ساكن الفردوس ! ... نظرة ... مدد ... نظرة ... مدد !...

ولقد سمعت رجلا يهز باب الضريح صائحاً :

— يا شيخ عليش !... يا حليق الراس... خذ بيدى ، وانسف وجع راسى ! ...

أبصرت ذلك وسمعته كثيراً من أفواه كثيرة ... وقلت فى نفسى : منذا يستطيع أن يقول فى هذه الجموع المؤمنة الآملة أن الشيخ عليش لا يوجد إلا فى بار «الفردوس» بشارع عماد الدين ، وأن من يدعونه ولى الله حليق الرأس ليس سوى «بلطجى» يحلق الآن الأنوف والآذان بموساه من رؤوس الناس !! ...

لو قلت لهم هذا القول لرجمونى بالحجارة ، وصاحوا بى : اقتلوا الكافر !... اهلكوا الكافر !...

على أن العجيب فى الأمر أن كثيراً من هؤلاء المرضى الذين

يزورون الضريح يشفون حقاً ... ولقد أكد لى ذلك بعض من يوثق بقولهم من جلة أقربائى فى الريف ...

ولقد فكرت فى ذلك قليلا ، فزال عنى العجب : يا لهؤلاء الناس !... انهم هم الذين يشفون أنفسهم بأنفسهم وهم لا يعلمون... إن الناس لاتريد أبداً أن تصدق القوة الخفية الكامنة فى أعماقهم... ولابد أن يخترع لهم وهمهم قوة خارجية ينسبون إليها ما يأتون هم من معجزات ! ...

وتخيلت حال الشيخ عليش ـ أو علوى بك ـ لو أخبرته بأمر هذا الكرامات التى تفيض على الجموع من نوافذ ضريحه ... بينما هو غارق فى خمور البارات والحانات ... ولكنى رأيت أن أمسك عن اخباره وأن ألزم الصمت المطبق ، رحمة بجيوب العباد . . . فإنه لو علم ، لحضر إلى الريف واستغل هذا المنجم الذى لاينضب ... وحسبى ما اقترفته من اثم ما زال يوقر ضميرى ، إذ دفعته إلى طريق الموبقة أول ليلة ... فلا ينبغى أن أدفعه إلى طريق اثم جديد ... فليبق اسمه منبع رحمة للناس وليذهب جسمه إلى الجحيم ...

عدت إلى القاهرة ... وذهبت فى المساء إلى حانة « الفردوس » فتلقانى مدير المحل بالترحيب ، وشكر لى موقفى وتدخلى فى تلك الليلة التى هاج فيها علوى وقذفه بالموسى... وقال لى انه كان ينوى

أن يخبر البوليس ، وأن يجازف ويتعرض لانتقام علوى ... فهو يعلم أنه لن يتركه فى هدوء إذا هو بلغ عنه ... فهو له أعوان . . . وأنه سيتعقبه بالويل ولو بعد أعوام من سجنه . . . لو سجن . . . ولكنه آثر ضبط النفس ، والتغاضى عن الحادث ... لأنه يعرف علوى منذ زمن ، ويعلم أنه سريع الغضب سريع الصفاء... والخير فى استئناف الصلات الودية مع مثله ... غير أنه يلاحظ عليه فى الأسابيع الأخيرة تغيراً غريباً . وليس هو وحده الذى رأى ذلك منه.. غانيات الحانة على الخصوص وهن أدق احساساً بما يشغل نفسه فى هذه الأيام ... ولقد سألته : أحادثَ علوى بعد تلك الليلة ؟... فأخبرنى وهو دهش أن علوى لم يحضر إلى الحانة منذ خروجه معى تلك الليلة ! . . .

وعبثاً حاولت بعد ذلك العثور على علوى . . . بحثت عنه فى جميع البارات والكباريهات ...

وأخيراً قال لى أحد خدم « البار » أنه لمح ذات مرة شخصاً يشبهه جالساً أمام مقهى وصفه لى فى حى السيدة زينب ...

فذهبت إلى ذلك المقهى... وإذا بى أجد علوى قاعداً بمفرده ، يتأمل شيئاً لا أتبينه فدنوت منه ، ولكنه لم يفطن إلىّ حتى وضعت يدى على كتفه ... فأفاق فى شبه رعدة ونظر إلى وقال :

ـــ أنت ؟... ماذا أتى بك إلى هنا ؟...

ـــ وأنت ... ما الذى أتى بك إلى هنا ؟...

ـــ اجلس ...

قالها وهو يهيىء لى كرسياً بجواره ، ونادى « الجرسون » وطلب لى فنجاناً من القهوة . . . وأطرق طويلا ، ثم رفع رأسه وقال بصوت كالهمس :

ـــ يجب أن أخبرك ...

ـــ بكل ما يقوم فى نفسك ! . . .

ـــ نعم ... لن أخفى عنك شيئاً مما فى نفسى ... إنى أحب... وعندما ألفظ أنا هذه الكلمة ، فاعلم أن أمراً عظيما قد وقع . . . فأنا من أكثر الناس صلة ومعرفة بالنساء ، ومن أكثر الرجال متعة وامتلاكا للحسان والغانيات والجميلات . . . ولكن الذى حدث لى قلب كيانى وأنبت فى قلبى مشاعر أحسها لأول مرة ... هى فتاة لو رأيتها لعجبت كيف أن مثلها يمكن أن يوحى بالحب... على الأخص إلى رجل مثلى . . . نحيلة ضئيلة يضرب لونها إلى الصفرة ، لا تضع الطلاء ، ولا تعرف الإغراء ولا تلبس غير البسيط الضرورى من الثياب . . . هى معلمة فى مدرسة ابتدائية للبنات فى هذا الحى ... تسألنى : كيف عرفتها ؟... أقول لك :

المصادفة . . . كانت فى دار من دور السينما مع بعض تلميذاتها يشاهدن رواية ملونة بالرسوم المتحركة . . . فلما انتهت الحفلة وخرجت بأطفالها تَـعرَّضَ لها شاب ثقيل بمغازلة سمجة ، فلم تعرف كيف تحمى نفسها منه ، فتدخلت وأنقذتها ، وأوصلتها إلى مدرستها مصونة موقرة مع تلميذاتها . . . فشكرت لى ذلك بصوت لن أنساه ! . . . صوت أثَّرَ فى نفسى كما تؤثر أحياناً قطرات الندى فى قطعة الصخر ... صوت لم أسمع من قبل نبرة حنانه ورقته ووداعته حتى ولا بين ملائكة السماء !... منذ تلك اللحظة شعرت أنى محتاج إلى هذا الصوت ، كما تحتاج الصحراء إلى ماء المطر ... فكنت أجىء فى كل يوم أترقب موعد خروجها ودخولها المدرسة . . . لأقابلها وأقرئها السلام ، زاعما لها أنى من سكان الحى ، وأنصرف عنها وقد ملأ صوتها قلبى ... فأعيش على هذا الغذاء ساعات حتى أحس الحاجة إلى صوتها من جديد ... هـذا كل عملى الآن ... انها كل شغلى الشاغل ... بل هى النور الذى أضاء جـوانب نفسى وجعلنىَ أتحسس دهاليزها المعتمة وأعرف ما فيها من خير وشر ، وفضيلة ورذيلة ، وكنوز وثعابين ، آه . . . ليس الفردوس هناك فى السماء ... وليس هنا فى شارع عماد الدين ! . . . انه هنا فى القلب ! .. وربما كان فيه الجحيم

أيضاً !... لقد عشت أياماً على أمل الزواج منها ... لأنى بغير هذا المصباح لا أرى شيئاً ، ولا آمين شيئاً ... ولا أفرق حتى بين الحسنة والسيئة ، ولكن دون هذا الأمل هوة أوسع من فوهة جهنم !... لقد تمكنت من إطالة حديثى معها ... فعلمت أنها مخطوبة لابن عم لها مدرس هو الآخر فى مدرسة ثانوية ... ولقد تبينت من حديثها وتفكيرها أضواء من الحياة النظيفة والعواطف النبيلة والأهداف السامية ... كل همها فى الدنيا إخراج نماذج من البشرية الراقية ... وهى تتحدث عن خطيبها كمعاون لها فى مهمتها الإنسانية . . . لقد كنت أحس الضآلة والحقارة وأنا بجوارها أستمع إليها ، كأنى ذبابة قذرة دانية من شراب مطهر أو دمقس مقدس !... ماذا ينبغى أن أفعل بعد ذلك ؟... أمامى طريقان ... إما الهجوم والعمل على الظفر بها بأى ثمن ، وقد أنجح ... فهى لا ترتاب فى أمرى ، وتجهل كل شىء عنى ، وقد لمحت من حديثها بعض الاطمئنان إلىّ والثقة بى ، وليس من العسير أن أُنمى ذلك فيها إلى حد العطف والميل وربما ... الحب .. وإما أن أنقذها منى ، وأتركها لطريقها المستقيم ، وخطيبها المهذب ، وحياتها النظيفة وهدفها السامى ... إذا دخلت حياتها فقد حطمتها وهدمتها .. فما أنا لها إلا نقمة ! ... وما ذنب هذه الطاهرة

الماضى الباسمة المستقبل ، أن تكتشف ذات صباح وهى بين أترابها وزميلاتها وتلميذاتها ورئيساتها أنها ماتزوجت غير « بلطجى »!... صناعته الكسب من أتاوات الغانيات والكباريهات!... وإذا تركتها... ولم تدخل هى حياتى فقد حطمتنى وهدمتنى... ماذا أصنع؟... إنى لفى حيرة ... وإنى لأرتمى كل يوم فى هذا المقهى ، بعد مقابلتها ، لأفتح فى نفسى ميدان صراع : هل أقدم ؟... هل أحجم ؟ . . .

وأطرق غارقا فى صمت طويل . . . ولم أشأ أنا قطع هذا الصمت ... فسكت ، وجعلت أداعب بأصابعى أذن فنجان القهوة ... إلى أن رفع رأسه مردداً :

— هل أقدم ؟... هل أحجم ؟ ...

فاكتفيت بأن قلت له :

— تلك هى المعركة الكبرى بين الخير والشر ! ... وعليك الآن أن تخوضها ! ...

* * *

مرت الأيام بعد ذلك دون أن أرى علوى ، فقد اختفى من كل مكان .. وإذا بى أتلقى خطاباً من أقاصى الصعيد ، بإمضاء «الشيخ عليوه» ، يخبرنى فيه أنه افتتح كتاباً من الكتاتيب فى تلك المنطقة النائية التى كان يرد ذكرها على لسانى فى أحاديثى مع «علوى» فى

ليالى السمر بالبار... وإنه قد انقطع لتربية النشء من أبناء الفلاحين ، وتبصيرهم بالفرق بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة ... وأن الموسى عادت إلى حلق شعر رأسه زهداً ... والعمامة والمسبحة ظهرتا لخدمة التقوى البصيرة ، والورع الحقيقى مع العمل المفيد والكدح المجدى ، وأن المصباح الذى أضاء قلبه يجب أن يظل مرتفعاً عن الدنس ... ولقد تركه لمصيره الطاهر معاهداً نفسه أن يحذو حذوه ، وأن ينهج سيرته ... وأنه يكفيه منه شعاع ينير له على البعد كالنجم السحيق ...

وكانت تلك نهاية المعركة ...

* * *

وختم صاحبي المرح قصته قائلا :

— والآن ... ها أنتذا قد سمعت قصة ذلك الرجل الذى كان يسمى : الشيخ عليش ، وعلوى بك ، والشيخ عليوه . . . فما حكمك عليه ؟ ...

فقلت له وأنا أرشف قهوتى بعد العشاء الشهى الذى قدمه إلىّ :

— فلنترك الحكم عليه لملائكة السماء ... فإنه سيصعد إليهم هذه المرة بملف زاخر ، سيقتضيهم فرزاً دقيقاً وحساباً طويلا . . . قبل أن يصدروا حكمهم بقبوله النهائى أو طرده الدائم من الفردوس ! . . .

لا كرامة لنبي فى وطنه

كانوا فى القرية يطلقون عليه اسم « زنجر » .. ولست أدرى أكان لهذا الاسم صلة بمنظره ؟ ... لقد كان أسود اللون ، قبيح الصورة ، مخروم الأذن ... يرتدى معطفاً عسكرياً ، نحاسى الأزرار ، من بقايا الحرب العالمية الأولى ، قد رث عليه وبلى وضاعت أزراره إلا واحداً ربطه بخيط من تيل ، وهو يحمل فى يده هراوة كانت فرعاً من شجرة السنط ، التى تظل « الكباس » القبلى ... يرفعها ويجرى بها وراء الساخرين به والضاحكين منه ... وما أكثرهم !... ما من أحد كان يأخذه على سبيل الجد ... وما كان هو يحفل بآراء الناس فيه ... كان يكفيه دائماً رأيه هو فى نفسه ... كان له أخوة يصغرونه سنا تزوجوا واستقروا وانتجوا ذرية تسعى معهم إلى الغيطان وتعود منها بعد الغروب ممسكة بزمام البهائم المحملة بعليقها من الحشائش وأعواد الذرة ... أما هو فكانت فكرة الزواج تثير بالنسبة إليه ضحك القرية وهذرها وعبثها ... من هى تلك التى ترضى أن تتزوج من « زنجر » ؟ ...

وكان هذا هو السؤال الذى اعتدت أن ألقيه عليه ، منذ أعوام طويلة ، كلما ذهبت إلى الريف :

— هل تزوجت يا زنجر ؟!...

— أبداً ...

كان يقولها فى شىء من المرارة والثورة ... فكنت ألاحقه :

— وما السبب ؟ ...

— مافيش فلوس !...

هذا كان تعليله الوحيد... ورأيت أخيراً أن أبطل هذه الحجة، فعرضت عليه أن أقوم عنه بكل نفقات عرسه من مهر وفرح وثياب الخ ... لو ظفر هو بالعروس ... فسر لذلك وحمد وشكر، ولكن الأيام مرت ولا نتيجة لهذا ولا أثر... ولم أعلم ماحدث... ولكنى صرت بعد ذلك كلما مشيت بين الحقول وإلى جانبى «زنجر» أتأمل من أجله كل فلاحة تميس بقدها تحت ثقل الجرة، كما يميس العود تحت ثقل السنبلة ... فأسائلها :

— يا بنت ... أتتزوجين الولد «زنجر» ؟ ...

فما أسمع إلا دقة على صدرها وصيحة :

— يا خيبتى ! ...

وتشتد فى السير مجفلة هاربة حتى تختفى ... وإذا «زنجر» بجوارى يشيعها وهو مجروح ساخط مغتاظ :

— داهية لا ترجعك ... وأنا كنت أرضى ؟!...

ثم يأخذ فى إقناعى بأن كل هؤلاء الفتيات دون ما يستحق ، ودون مايريد ، ويأخذ بعد ذلك فى حمد الله إذ ضرب على أبصارهن، فهذا الرفض منهن نعمة !... ولكننى لا أقتنع ، وأظل أطرح السؤال على طوائف مختلفة من بنات القرية ... وأهبط فى سلم الجمال درجات ، وأطأطىء الرأس نيابة عنه وأقبل تضحيات ، حتى وصلنا إلى درك لا نزول بعده ... فكل مشوهات القرية ، من الخنفاء والعرجاء والحدباء ، عرضت أمره عليهن ... فما سمعت قط غير تلك الصيحة المنكرة من الأفواه ، وذلك الدق المستنكر على الصدور ... وتلك العبارة الواحدة من كل الشفاه :

— ضاقت علينا الدنيا ... ما بقى غير « زنجر » ؟!...

* * *

وصدقت وآمنت أخيراً بصعوبة زواجه ... فهذا رجل تنشأ فى القرية أضحوكة ، وشبت فتيات القرية لا يبصرن منه ولا يعرفن عنه إلا أنه رمز السخرية ، ومناط العبث ومثار الهذر .. لقد كان فى مجرد تقدمه إلى أسرة من القرية سوء أدب منه فى نظرها ، وتعد منه على كرامتها ، وخدش لسمعتها ... إذ استقل شأنها فخصها دون أهل البلد بهذه المهانة وقلة التقدير ... هكذا كانت الأسرة تدفعه عنها كما تدفع الفضيحة ... وبلغ الحال من السوء أن أصبح

«زنجر» شخصية تغيظ بها البنت المذنبة إذا أردت لها تأديباً .. ولم يشذ عن استخدام هذه «الأداة» التأديبية أحد حتى أنا ... فقد انتهى بى الأمر أن آمنت بما يؤمن به الجميع فى القرية ... وصرت إذا أردت أن أشتم بنتاً مهملة من بنات الخدمة فى البيت أو الحقل أكتفى بقولى :

— والله يا بنت لأزوجك من «زنجر» ! ...

فتطفر دموع الخوف والضراعة من عينيها فى الحال ... وأدرك أنى قد رفعت عليها بهذه الجملة سوطاً يقيم عوجها ويصلح فاسدها ...

كل هذا و «زنجر» فى ملكوت من نفسه ، وعالم من رأيه ، وحصن من «حالة معنوية» عجيبة ... مرتفع فوق لجج الاستهزاء العام ، لا تعصف برأسه أنواء ، ولا يصل إلى عينيه رذاذ ولا ماء ... لطالما ساءلت نفسى فى أمره : أهو جمود ؟ ... أهى بلادة شعور ؟ ... أم هى صلابة شخصية وقوة إيمان ؟ ! ...

أردت أن أتندر به ذات يوم ، فقلت له :

— ومن التى ترضى أن تتخذها زوجة لك من بين بنات القرية ؟ ...

فقال بلا تردد :

— البنت «سلطانة» ...

يا للعجب ! ... «سلطانة» هذه هى أجمل بنات القرية طراً ...

هى الزرقاء العينين، العسجدية الشعر ... التى يخشى التقدم إليها أجمل فتيان القرية وأقواهم ... هى التى يتنافس فيها المتنافسون، ويتزاحم المتزاحمون، من بين من فرزت مؤهلاته وبرزت صفاته ... فما تمالكت أن صحت به :

— طيب اسكت ... اسكت ...

مرت الأيام ... وعدت مرة أخرى إلى الريف بعد غيبة عنه طويلة ... فراعنى ما أجد ، وأذهلنى ما أرى ...

زنجر قد تزوج ...

تزوج بمن ؟ ...

بفتاة أجمل من سلطانة ! ...

وعلم زنجر بحضورى ، فجاءنى وكأنه يقول : « هـــذه المرة تستطيع أن تسألنى السؤال المعهود » ... ولكنى كنت علمت الجواب من قبل ... فاكتفيت بأن أقرأ على وجهه سطور انتصاره ... بل لقد قرأت ذلك على وجوه أهل القرية أجمعين ... لم يعد « زنجر » فى نظارهم ذلك « الأضحوكة » ... ان الاسم لم يزل لاصقاً به ... ولكن قد غسل عنه كل معنى من معانى الهزء والسخرية ...

كيف حدثت المعجزة ؟ ... لم يخبرنى هو ... ولكن الذى قص علىّ شيخ وقور من شيوخ القرية ، قال :

— حدث منذ ثلاثة أشهر أن حضرت إلى القرية « ترحيلة »

« لنقاوة » الدودة من زراعة القطن وكان يعمل فيها بنات كثيرات من قرى بعيدة . فيهن جميلات وفيهن رشيقات ... وكان زنجر هو «الخولى» عليهن فإذا هو يلمح من بينهن فتاة هي أسطعهن جمالا وأوفرهن سحراً وأكثرهن فتنة ... بل هي حسن لم نر له مثيلا في قريتنا ... فلزمها في العمل ، وتودد إليها ... وخفف عنها ... وكان لا يأمرها إلا بمعروف ولا يعاملها إلا برفق ولا يحادثها إلا بلطف ... وتفتحت نفسه لها بيضاء جميلة كما تتفتح زهرة القطن ... وكانت الفتاة طيبة القلب، فأبصرته « بعين » قلبها ولم تبصره بعين أذنها ... رأت «الانسان» ولم تر فيه «الأضحوكة» ... فهي من قرية بعيدة لا تعلم عنه شيئاً ... فلم يقم بينه وبينها سد قديم من تلك الشخصية المبنية بلبنات الضحكات ، في بلده ، على مدى الأعوام ... لقد بادلته لطفاً بلطف ، وعندما قال لها مازحا ذات يوم : « تتزوجينى ؟ ... » لم يرعه إلا قولها : « نعم » ... فقال لها :

— صحيح ؟ ...

فقالت :

صحيح ! ...

— تحلفى على المصحف ؟ ...

— أحلف ...

وأقسمت أنها جادة . وأنها لا تطمع في زوج خير منه ، فطار

زنجر فرحاً إلى أهله يزف إليهم الخبر ... ولم يصدق أهله هذا الكلام إلا بعد أن سمعوا قبول الفتاة بآذانهم ... فارتفعت « الزغاريد » فى القرية ... ودفع زنجر المهر لأم العروس ، فأبوها قد توفى وتزوجت أمها بغيره ... وجاءها بحلق و « غوايش » فضة وخلخال ومرتبه ولحاف ومسندين ومخدتين ، وحلة وطشت وفناجين قهوة ، وبراد شاى وصينية وأربع ملاعق وأربعة أطباق ... الخ الخ ... ثم أعدت العدة ليوم الفرح فأحضروا الجمل وطفق زنجر مع اخوته يزينونه بسعف النخيل والبوص والجريد والشال الأحمر ... وأتموا صنع الهودج الذى سيحضرون فيه العروس الفاتنة من بلدها ... كل ذلك بين غناء أهل زنجر وغبطتهم بفوز هذا المظلوم ... وبين نظرات الدهشة والحسرة والندم من بنات القرية اللاتى سخرن من زنجر ، فأظهره الله بمن لا يصلن إلى كعبها ملاحة وطهارة ودماثة . . .

أصغيت إلى كل هذا ... وعلمت سر « المعجزة » . . . لقد جاءه الخير والتقدير ورد الاعتبار من قرية أخرى بعيدة ... هكذا أنصفه الله . . . بالطريقة التى أنصف بها من رضى عنهم من الرسل والأنبياء . . .

الدنيا رواية

الدنيا رواية حقاً فى نظر أولئك الذين يؤمنون بنظرية حلول الروح ... تلك النظرية التى تزعم أن عدد الأرواح فى الكون محدود ، كما أن عدد الممثلين فى المسرح محدود... وأن الذي يتغير هو الأدوار التى يتقمصها أولئك الممثلون...وهى أدوار لاحد لها ولا نهاية ، فى تلك الرواية الاستعراضية العظمى !...

إذا سايرنا أصحاب هذا الزعم فى زعمهم ، فإن الصورة التى يمكن رسمها للدنيا تبدو جديرة بالتأمل... ومن السهل تخيل الأرواح فى ظهورها واختفائها فوق مسرح الدنيا ، على الوجه الذى يحدث بالضبط فى المسارح التمثيلية ... فهنالك ، مثلا ، بعيداً عن هذه الأرض وشمسها وقمرها ، مكان خفى ، يمكن أن نتصور فيه ملاكاً يقوم بوظيفة « الريجيسير » ـ أى مدير المسرح ـ يعطى الإشارة للشمس والقمر ، فتسلط الأولى أشعتها الذهبية القوية ، والآخر أشعته الشاحبة الفضية على سطح الأرض . . . كما تسلط مصابيح « البروجكتور » الكهربائية على خشبة دار التمثيل . . . ولا بأس من أن نتخيل ذلك « الملاك » فى مكانه هذا يباشر أعماله اليومية ، وينظر فى « اللوح » الذى أمامه ، المسطورة فيه الأدوار والأقدار »

ويستعرض ألوف الأرواح المهيأة للظهور على مسرح الدنيا ، ويستقبل الألوف من الأرواح الخارجة منه ... ولاضير أيضاً فى أن نطلق الخيال أبعد من ذلك ، لينسج لنا قصة روح من بين تلك الأرواح العائدة ...

* * *

ظهر الروح الذى نروى قصته ، خارجاً من الدنيا وهو مدهوش مذهول ، كمن أفاق فجأة من نوم عميق ، وهو يردد هذه العبارة :

— يقولون إنى مت ! ... أأنا الآن ميت حقيقة ؟! ... زوجتى التى تتحطم تفجعاً ، تصيح بأنى أمرت ، وأنى مت . . . أخبرونى أيها السادة ... هل أنا حقاً ميت ؟ ! !

ولم يلتفت إليه « الملاك » المنهمك فى أعماله ، الشاخص ببصره إلى اللوح الذى أمامه ، والسجل الذى بين يديه ، واكتفى بأن هز رأسه وقال كالمخاطب لنفسه :

ـــ كلكم هكذا ... لا تريدون أن تصدقوا أنكم متم ... ماذا أصنع لكم ؟ ... أنا ... ليس لدى وقت أنفقه فى إقناعكم وإقامة الأدلة والبراهين لحضراتكم ... تقدم يا ... ماذا كان دورك فى الدنيا هذه المرة ؟ ...

ـــ كنت طبيباً ... وكانت لى زوجة ... آه ... إن زوجتى

هى التى تموت الآن ولا شك حزناً علىّ أنا ... يا المسكينة ! ...

ونسى ذلك الطبيب - أو روحه - كل ما حوله ، وراح يذكر كل دقيقة من دقائق حياته التى يؤكدون له أنها انتهت ... كان طبيباً جراحاً ، تخرج فى كلية الطب متفوقاً ، وكل شىء يبتسم له ، لقد كان من أولئك القلائل الذين ينالون دائماً ما يريدون ، كان حسن المنظر لطيف المعشر ، يظفر بنظرات كل ممرضة وطالبة، لكنه كان يعتقد أن هناك امرأة واحدة لابد أن تستحوذ على كل قلبه وفكره وجسمه ، ولابد لها أن تأتى يوماً ، إنه أرادها ولابد له أن ينالها فالقدر قد عوده أن يذله كل ما يتمنى ، فالنجاح فى مهنته تمناه ففاز به ، وقد تمنى المال والترف ، فجاءه المال من عمله ومن ميراث عائلى... وهو بعد ذلك يتمنى أن يلتقى الزوجة التى يعطيها حياته وكده وكسبه ... فوجدها ذات يوم فى صورة مريضة ، أتت ليجرى لها عملية استئصال الزائدة الدودية ، ما إن وقع بصره عليها حتى اضطرب . . . أترى الأرواح تتلاقى حقاً ؟... كيف تلاقت روحاهما من النظرة الأولى !؟ ... وكان من المستحيل عليه أن يتصور أنه هو الذى يجرى لها الجراحة بيده ، ويشق جسدها بمديته ... إن قلبه لن يحتمل ذلك ... واعتذر لها ولأهلها بشتى الحجج ، وعهد بأمرها إلى جراح آخر قال إنه أمهر منه ... ولم

تدرك هي معنى ذلك الاعتذار إلا يوم فاتحها قائلا : «لقد خلقت لأكون زوجك لا جراحك»... وكانت هذه الزوجة كل شيء في حياته ... وكان هو كل شيء في حياتها ... ما من كائنين اتفقا والتصقا وأصبحا كائناً واحداً مثل هذين الزوجين ... كانت زوجته تقول له يوم ترى جرحا في أصبعه : «يا للعجب ! ... كأن الألم في أصبعي أنا ... أهو وهم ، أهو حقيقة ؟... كيف ينتقل الوجع المادي من أصبعك إلى أصبعي هكذا أيها العزيز ؟... » وكان هو يقول لها : «العجيب حقاً هو أن كلامك هذا هو عين ما عندي ... لقد شعرت فعلا يوم جئتني لأشق جسدك ، كأن المشرط سيشق جسدي أنا ، وأنا بالطبع باعتباري جراحك لن أعطى مثلك البنج ، فتصوري جراحة تجرى لي بغير بنج ، بينما أنت المريضة لا تحسين الألم ! ... » وعاش هذان الزوجان السعيدان أعواماً كلها هناء ... ولم ينجبا أولاداً ... ولم يحل ذلك دون تعلق أحدهما بالآخر ... بل لقد كرها الأطفال حتى لا يسمحا لغيمة أسف أن تخيم على حبهما ... انهما هكذا ناعمان أحدهما يكمل الآخر... ولا حاجة لهما بثالث ... وجاء اليوم المشئوم ... فقد نهض على عادته في الصباح المبكر لإجراء عملية جراحية ، ولكن زوجته أحست في ذلك اليوم خطراً . . . وتنبأت بكارثة ، كما تتنبأ آلة

الرصد بكسوف الشمس ... فتوسلت إليه أن يبقى معها ذلك النهار ... فأبى التقصير فى واجبه ... إن مرضاه فى انتظاره ... فادعت المرض ... فلاطفها ، وداعبها حتى كشف بظروف عن تحايلها ، وقبلها قبلة طويلة ، وانفلت من بين ذراعيها المتشبثتين بعنقه ... وتركها جامدة كالتمثال . . . وفى الظهر عاد وفى جسمه السم ... فقد شرط قفازه أثناء الجراحة ، وسرى الداء فى دمه من أصبع مجروحة ، واجتمع حول فراشه أساتذة الطب وأساطين العلم لينقذوه من الموت ... ومن خلفهم زوجته تموت وتحيا مع كل نفس من أنفاس قرينها الحبيب ... ولكن ... كان الموعد محدداً لانتهاء دوره فى الحياة عند هذا الموقف ... وكان على الروح فى ذلك الوقت أن يخلع الجسد كما يخلع الممثل ثياب التمثيل ... وعندما كان يسلم النفس الأخير ، بين شهقات امرأته المكتومة ، وبريق دمعها المنساب ، ووقفتها المترنحة المتجلدة ، وابتسامتها المموهة الدامية ، خيـل إليه أنه يرى الحقيقة تضطرب فى الظلام خلف عتبة الحياة .. نعم ... الحقيقة هى أن الحياة ليست حقيقة ... كان احساسه احساس ذلك الممثل الذى عاش دوره ، ونسى أمره ، وأبكى الحاضرين وبكى هو نفسه ، إلى أن فرغ من الموقف الأخير ، وشعر بنزول الستار ، فالتفت ، فإذا عينه تلمح

فى الظلام « السكواليس » بما فيه ومن فيه ، فسكن ثائره ، ورفع يده ليمسح دمعه ، قبل أن يدلف إلى داخل المسرح فيسخر منه زملاؤه ويسخر هو من نفسه .. ولكن عبرات المشاهدين كانت ترده إليهم وإلى التعلق بهم وبدوره . . . فالعواطف فى ذاتها حقيقة ... كذلك الطبيب المحتضر ... خطر له أن يبسم لزوجته الثكلى ، وأن يهمس لها أن الأمر زيف فى زيف ، ولكن ... كيف يكون كل هذا الحب زيفاً ؟ ... مهما يكن ما بعد الحياة ، وما بعد التمثيل فإن الدموع فى ذاتها جديرة بالاحترام ، والحب فى ذاته أجل من أن يهزأ به ، إن الحب حقيقة ، وإن ما يربطه بزوجته لا يمكن أن يخلع مع رداء التمثيل ، ولو اجتمعت عليه كل ملائكة السماء ! .. وهكذا ترك الميت خشبة « الأرض » وخلع رداء جسده ، ودخل على « الملاك » المدير ، روحاً عارياً مجرداً ... ولم يحس بعد فرقاً كبيراً بين ما كان منذ لحظة وما يكون الآن ... أين هو ذلك الموت الذى يقولون عنه ؟ ... ما الذى تغير فيه ؟ ... ها هو ذا يحب زوجته حباً جنونياً ... وكل أمله أن يلقاها ... ولكنه لا يستطيع ... لأنه ميت ، كما يقولون ... إذ يراها ، ويرى جزعها ، ويريد أن يمد يده إليها ، وأن يحادثها ليهون عليها .. ولكن صوته لا يبلغها ، ويده لا تطيع إرادته ... ما من

أعضاء مادية تأتمر الساعة بأمره ... كأنها أشياء منفصلة عنه ... لا يملك تحريكها ، حاله الآن كحاله عندما كان ينتابه فى الدنيا كابوس فيريد وهو فى فراشه أن يتحرك ، ولكن إرادته لا تطاع ... إنه الآن إرادة مطلقة فى الهواء لا تسيطر على أجسام، ووعى مطلق فى الفضاء لا يؤثر فى أشخاص ، عدا ذلك فهو هو لم يتغير فمن يدريه أن هـذا موت ؟... لعله نوم عميق أو حلم عابر أو كابوس مؤقت !...

والتفت مرة أخرى إلى « الملاك» المنهمك فى أعماله وقال له :

— أنا لا أحس أنى ميت ...

فنظر إليه « الملاك » نظرة شزراء وقال :

— أنت حر ...

— أريد أن أعود إلى زوجتى ...

— قل هذا لعزرائيل من فضلك ...

— عزرائيل !... أتمزح ؟؟...

فلم يتمالك « الملاك » وقال نافذ الصبر :

— ليس عنـــدى وقت للمزاح يا سيدى ... آه ، لو درى عزرائيل ! ... ذلك الذى لا تبطل له شكوى من كثرة أعماله ، لمجرد قبضه عدة أرواح كل يوم ، ينفض بعدها يديه ويستريح ...

أما أنا فيجب على أن أقاسى من أرواحه وأتحمل حماقاتها ، وأصغى إلى ثرثرتها !.. ياحضرة الفاضل.. ألم يقبضك عزرائيل؟... كيف تريد إذن منى أن أعيدك إلى زوجتك ؟... وإذا كان كل روح يقبضها زميلى أعيدها أنا ، فما الفائدة إذن من قبض الأرواح ؟!...

— أنا شخصياً لا أرى فائدة ... لقد كنت مع زوجتى فى أتم هناء ... فلماذا تتدخلون أنتم لتفرقوا بين المحبين ؟!...

— لا نستطيع يا سيدى الفاضل أن نتركك فى هذا الدور ، أعنى فى هذا الجسد كما تحب أنت وتشاء ، لأن روحك تلزمنا فى عمل آخر ...

— عمل آخر ؟ ...

— طبعاً ... لابد لك من جسد آخر تحل فيه ، ودور آخر تقوم به ... وهل تظن أن هذا كان أول أدوارك أو آخرها ؟...

لقد سبق لك أن حللت فى مئات الأجساد ، وقمت بمئات الأدوار...

— أنا ؟... أنا سبق لى أن كنت شيئاً آخر غير زوج يحب زوجته ، وطبيب جراح فى ...

فابتسم «الملاك» ابتسامة الساخر المتبرم ، الرائى لجهل محدثه... وأخذ يقلب فى صمت صفحات سجله الضخم ، إلى أن وقف على صفحة ، نظر فيها لحظة ثم قال :

— اسمع يا سيدى ... قبل أن تكون زوجا وطبيباً ، كنت لصاً سكيراً ، فتك براقصة فى ملهى ليسرق حليها ... ومات على المشنقة ! ...

— أنا ؟ !...

— انتظر .. ثم كنت قبل ذلك جنديا بسيطاً قتل فى معركة .. ثم كنت طفلا مات بالدفتريا ، ثم كنت إمرأة ماتت فى الوضع .. ثم كنت رجل دين مات بالشيخوخة ، ثم أميراً مات مسموماً ... ثم كنت ساحراً هندياً لدغته أفعى ، ثم كنت فتاة انتحرت فى حادثة غرامية ...

— كفى ... كفى ... إنى لست مجنوناً لأصدق هذا الهراء ... أنا طبيب جراح ... ولى زوجة أحبها ، وإذا لم ألحـــق بها فهى لابد لاحقة بى ... ولن أصدق أبداً أنى كنت أمثل دوراً ...

فنظر إليه « الملاك » بابتسامته الهازئة وقال :

— كل مرة تقولون لى عين هذا الكلام ، أنت وغيرك ... إنكم لا تصدقون أن هذا كان تمثيلا ...

— تمثيلا ؟... حبها لى وحبى لها .. وحياتنا معاً التى لا نتصور حياة غيرها !... لا ... لا ...

— إنك لم تزل واقعاً تحت تأثير دورك ... إلى أن تذهب إلى

البحر ، فتغسل ذلك الطلاء ، وتزيل ذلك « المكياج » عندئذ فقط تكون على استعداد لارتداء الدور الجديد ...

وأشار « الملاك » إلى أحد مساعديه العديدين ، إشارة ذات معنى ، فتقدم ليقود روح الطبيب ، ولكنه وقف ونظر إلى عتبة الباب وقال لرئيسه :

— عزرائيل أرسل إلينا روح إمرأة ...

ولم يكد يتم كلامه حتى ظهرت بالباب روح الزوجة ، وما كاد روح الزوج الطبيب يرى روح زوجته ، حتى صاح فرحا :

— ألم أقل إنها لابد لاحقة بي !...

واندفع كل منهما نحو الآخر ... وقالت روح الزوجة :

— آه يا زوجي العزيز ... لم أستطع البقاء هناك بعدك ، لقد كانت ليلة فظيعة ... تلك التي رأيت نفسي فيها وحيدة بدونك ، أناديك في الظلام ... ولم أتمالك نفسي عند الفجر ، وأنا محطمة الأعصاب فتناولت كل ما كان بجواري من أقراص الأسبيرين طالبة النوم الأبدي ، والراحة السرمدية ، أو اللحاق بك ، وهاهو ذا أملي يتحقق وأراك ... كيف أنت أخبرني ... إنك بخير فيما أرى ، كيف قالوا إذن إنك مت؟ ... أنا أيضاً لست ميتة فيما أعتقد ... كنت أتمنى الموت ... وقد شعرت عندما استدعوا الطبيب والأسعاف

بعد تناولى الأقراص ، أنهم يهمسون حولى بكلمة «الموت»
ولكن ... أين هو الموت ؟! ... أين هو ذلك « الموت » ؟! ...
ولم يستطع « الملاك » صبراً ... فنفخ صائحاً :
— أف ! ... لعنة الله على هذه المهنة ! ...

* * *

طفق الروحان يثرثران كالأطفال ، وقد أعماهما الفرح عن كل ماعداهما ، ولم يحفلا بمن حولها ، وأدرك «الملاك» أنهما لن يفرغا من الحديث ، إذا تركا وشأنهما ، فأومأ إلى مساعده أن يقودهما إلى حيث يغسلان عنهما آثار دوريهما ... إلى « بحر النسيان » ...

واتجه المساعد نحوهما ليذهب بهما ، فجفلا منه وابتعدا عنه ، والتفتا إلى « الملاك » صائحين :

— أيراد التفريق بيننا ها هنا أيضاً ؟ ...

— لابد من ذلك ...

— نتوسل إليك ... نتوسل إليك أن تدعنا معاً دائماً ... فى كل مكان ، وفى كل زمن ، وفى كل دنيا ... ماذا يكلفك هذا أيها الملاك اللطيف ؟ ...

— هذا قد يحدث لنا بعض الارتباك فى العمل ...

قالها بصوت بدت فيه رنة لين ، فمضى الزوجان فى الإلحاح :

— نتوسل إليك ... مثلك لن يعدم وسيلة ... إجمعنا دائماً ولا تفرق بيننا أبداً ...

— سأرى ... سأرى ... ربما دبرت لكما ذلك ... لكن إذهبا الآن قبل كل شيء واغتسلا فى البحر ...

— شكراً لك ...

لفظها الروحان بحرارة وفرح ... وذهبا فى الحال مع المساعد صاغرين إلى بحر النسيان ...

وهناك يجدا بحراً هائلا له شاطىء جميل مثل شواطىء المصايف الشهيرة ... والبحر يعج بالأرواح السابحة فيه . فخلب لبهما المنظر ... واندفعا إلى البحر ضاحكين سعيدين كما كانا فى الدنيا ...

وقفزا معاً إلى الماء ، يتناغيان بأرق الأسماء ، وغمرهما موج أبيض كأنه رغوة الصابون ...

فإذا هما يحسان كأن شيئاً يزول عنهما رويداً رويدا ... وإذا كل منهما يردد من أعماق نفسه متعجباً متسائلا : « من أنا ؟ ... ومن هذا الذى بجوارى » ؟ ... وخرج من هذا البحر من خرج إذعاناً لأوامر المساعدين ، وبقيا هما حتى أشار إليهما المساعد الموكل بهما ، فخرجا كما تخرج اللوحة المكتوبة من الماء .. لا أثر فى نفسيهما لحرف واحد من حروف حياتهما الماضية ... وأعادهما

المساعد إلى « الملاك » وقد جاءت نوبتهما فى المثول أمامه، لتوزيع الأدوار الجديدة ، فسأل كلا منهما :

— هل تعرف من أنت ؟... وأين كنت ؟ ... وهل تعرف من هذا الذى بجوارك ؟...

فأشار كل منهما بالنفى ... فقال « الملاك » كالمخاطب لنفسه وهو يراجع سجله الضخم :

— إنى وعدت مع ذلك أن أجمعكما مرة أخرى فى دوران يصلحان لذلك ، فلتكن أنت إذن طياراً رياضياً ... وأنت فتاة عاطية ... أيها المساعد ... إقذف بهما إلى مسرح «الأرض» ...

* * *

كل شيء كان قد أعد ليصير « هو » طياراً فقد خرج إلى الدنيا طفلا فى أسرة متوسطة المركز طيبة المنبت ، وشغف فى حداثته بالألعاب الرياضية ، وغدا فتى وتعلم فى المدارس ، وأصبحت له ميول وموجهات ، بعضها يدافع البعض ، ولكن الظروف النهائية وجهته على الرغم من كل شيء إلى الطيران ، فدرسه ، والتحق باحدى شركات الملاحة الجوية ... أما «هى» فقد شبت خيالية نزعة مدللة مترفة فى أسرة ميسورة الحال ، مفككة الأخلاق ... الأب مشغول بنفسه وملاهيه ، والأم ساذجة ضعيفة

الإرادة ... وولعت الفتاة بالرقص والحياة الصاخبة الحديثة ... وكان «هو» فى طرف من المجتمع و «هى» فى طرف ، ولم يكن من السهل أن يلتقيا ... فهو لا يرتاد المجتمعات التى ترتادها هى ، ومع ذلك فقد كان لا بد من التلاقى، وقد حدث ...

كان يقود طائرته ذات يوم ... وكان الباب الصغير الذى يفصل بين مكان قيادته وبين مكان الركاب مفتوحا على غير العادة ، فلمح فى أحد المقاعد فتاة تقرأ إحدى المجلات ... ما كاد يراها حتى ارتجف ، وارتجفت معه الطائرة بمن فيها ، فقد غفل لحظة عن قيادتها ... وانزعج الركاب قليلا ، ورفعت الفتاة أهدابها الطويلة ... فتقابلت عيناهما ... وعجب مهندس اللاسلكى لما حدث ونظر لى الطيار بجواره ، وألفاه يصيح بين ضوضاء المحركات قائلا : «إنى أعرفها ... أين رأيتها ؟ ... متى رأيتها» ؟ ... وما كاد يهبط بالطائرة فى مطار الوصول ، حتى قفز منها وتبع الفتاة ، وتقدم يخاطبها كأنه يعرفها من قبل ... أما هى فلم تنهره ولم تغضب منه ، بل أحست الارتياح والرضا ، وشيئاً من الاطمئنان الخفى إلى هذا الشاب ... ومضى هو يقول بإخلاص حار :

— إنى آسف إذ أضطر أن أقول لك تلك العبارة التى ابتذلها الشبان اليوم : «أين رأيتك من قبل» ؟ ... ثق أنى لا أتخذها حجة

لمحادثتك .. ولكني ... عندما وقع بصرى عليك شعرت فى الحال أنى أعرفك وأنى رأيتك فى مكان ما ، انتظرى ... ربما تلاقينا آخر مرة فى . . . فى بحر ؟ ...

فأجابت باسمة :

— من الجائز ... فى « بلاج » من هذه « البلاجات » ...

— ربما . . . أخشى أن تكون الطائرة قد أزعجتك عندما ارتجفت ...

— لا ... إنى فقط عند هبوط الطائرة ، أحس عادة بعض الصداع ... ولكن عندى دواء لذلك ...

— قرص واحد من الاسبرين يكفى ...

فظهر فجأة الارتياع على وجه الفتاة وهمست :

— اسبرين !... أرجوك ... لاتلفظ هذه الكلمة ، لا أمقت شيئا مثلما أمقت الاسبرين ... ربما اتهمتنى بالخبل ... ولكنى منذ صغرى أرتاع لمجرد رؤيته ... سامحنى ... هنالك أشياء تولد فينا ولا نستطيع لها تعليلا ...

— لا تؤاخذينى ... إنى آسف لم أقصد إيذاءك مطلقاً ...

— أعلم ذلك ... هذا ليس ذنبك ... إنما هى نزوة من نزواتى ليس لها مبرر ... ألا يتفق ذلك أحياناً لكثير من الناس ؟...

ألا يحدث لك أنت أيضاً أن تكره شيئاً بدون سبب ؟...

— نعم ... نعم ... أنا أيضاً فى الصغر كنت أحس الاغماء كلما ذكرت أمامى كلمة « عملية جراحية » ... وعبثاً حاول أهلى تعليل ذلك ... ولكن هذه الحالة زالت بزوال عهد الصبا ... وأصبحت بعدئذ شخصاً عادياً ...

— أرأيت ؟... فينا أشياء كثيرة متقاربة ...

— هذا من حسن حظى ...

* * *

منذ تلك الحادثة الأولى ، وهما يشعران كأن شيئاً يجذب أحدهما إلى الآخر . . . ولم يمض قليل حتى تم بينهما الزواج ، ولكن ... مرت الأيام وكل منهما يلحظ أنه يسير فى طريق غير طريق الآخر ...هو يأتى من عمله متعباً فيجد المنزل يصخب بأنغام « الرومبا » و « الفوكس تروت » و « الهوجى بوجى » فينبهها برفق :

— أما تكفينى طول النهار ضوضاء المحركات ؟...

فتجيبه بتبرم :

— محركات ؟! ... هذا كل ما تعرفه ... أنت لست « رومانتيك » . . .

وكان يبلغ هذا الخلاف بينهما فى الاتجاهات ... وكان يعلل

النفس أن هذا طيش قد تمحوه الأمومة ... وأنجب منها طفلين جميلين ، ولكن الأمومة لم تقهر عندها المزاج ... بل المزاج هو الذى قهر الأمومة ... وأمسى الزوج الطيب يجد ليالى زوجته مشغولة كلها بالحفلات والسهرات .. وتعدى الأمر إلى ما هو أمر .. فقد دخل عليها يوماً فوجد لديها شاباً لا يعرفه ... زعمت أنه من رفاق الطفولة ، وأنه أخوها فى الرضاع ... وقام بين الزوج وزوجته شجار ، حسمه الزوج بالحسنى مراعاة لأولاده .. ولكنه أدرك عندئذ أن علة شقائه فى الحياة هى هذه المرأة ... وكرت الليالى حمراء بالنسبة إلى الزوجة اللعوب ، بيضاء من السهاد ، سوداء من الهم ، بالنسبة إلى الزوج المنكود .. ولم يعد يحسن عمله لقلة نومه واعتلال صحته ، وسمع همساً فى الشركة المتذمرة ينذر بالشر ، كما سمع همساً عن سلوك امرأته يندى له الجبين الحر ... وأكلت نفسه الهموم ، ونخرت فى قلبه الشكوك ... وفى ذات ليلة دهم زوجته وهى فى أحضان شاب ... فارتاعت وقالت متلعثمة انه معلم رقص يعلمها الرقصة الجديدة ... وفقد الزوج صوابه فأخرج مسدسه وأطلق على زوجته رصاصة أردتها قتيلا ... وقفز «معلم الرقص» المزعوم قفزة «فوكس تروت» من أعلى السلم وهرب كما يهرب الثعلب من حظيرة الدجاجة .. وسمع الجيران الطلق النارى ، فصاحوا ، وأقبل «البوليس» ينفخ فى صفارته

وثاب الزوج إلى رشده ، وفطن إلى الفضيحة ، فأفرغ فى رأسه رصاصة أخرى أردته قتيلا هو الآخر ...

ورفع « الملاك » بصره من فوق سجله الضخم على شجار روحين داخلين عليه ... أحدهما يقول للآخر :

— سخيف ! ... أقسم أنك سخيف . . . تطلق علىّ مسدسك لسبب تافه كهذا ؟! ... ما أضيق ذهنك أيها الزوج المغفل ! ... ولكن هل ينتظر من مثلك تصرف غير هذا ؟! ... انك طول عمرك كنت زوجاً مغفلا ! ...

— اسكتى أيتها المرأة ... لاداعى لسلاطة اللسان ! ... ولكن الذنب ليس ذنبك ... الذنب ذنبي أنا ... لا شك أنى جننت حتى أقتلك وأقتل نفسى معك فى نفس الوقت ... ما الفائدة ؟ ... ماذا فعلت أنا إذن ؟ ... ها أنت ذى معى هنا أيضاً ... يا للمصيبة ! ... يا للمصيبة ! ...

ولم يجد « الملاك » بداً من التدخل ، فصاح فيهما طالباً إليهما السكون واحترام المكان ... فتقدم إليه الزوج - أو على الأصح روحه - صارخا متوسلا :

— يا ملائكة السماء ! ... يا شياطين جهنم ! ... يا عفاريت الجن ... خلصونى من هذه المرأة ! ...

مدرسة المغفلين

هب من فراشه بعد منتصف الليل على طرْق الباب ، وقام ليفتح ، وهو كالسكران من حلاوة النوم ، ومشى فى دهايز مسكنه الذى يبيت فيه وحده ، مشية غير الواثق من يقظته ، ثم فتح بغير تفكير ، وإذا شاب يدخل صائحا :

— ارحمونى ... ارحمونى ...

ويندفع إلى البهو ، فيضيء أنواره كلها ، ويختار مقعداً ضخما فخما يرتمى فيه ، ويخرج من جيبه ورقة ، طفق يقرأ منها بأعلى صوته :

— ارحمونى ... ارحمونى ...

فأقبل صاحب البيت يجر قدميه ويسأل متثائباً :

— ما هى المسألة ؟ ...

— المسألة خطيرة جداً ، انه الحب ، انه السهاد ، انه البعاد .. طول الليل وأنا أنظم هذه القصيدة ، لعلها ترق وتحن ، لقد قطعت لها قلبى ، لأضع فى كل كلمة قطعة ... اجلس واسمع ...

فلم يجد صاحب الدار بدأ من الإذعان ، فالضيف صديق لا يجب إغضابه ، وهو فى عرف الذوق واللياقة مكاف بإكرامه وارضائه ، فجلس مكرها ، يغالب الكرى ويتجلد ، ويصارع النعاس

ويتماسك ، ليسمع شعراً ونظماً فى الهزيع الأخير من الليل...

ونشر الضيف الورقة فى يده وأنشد :

ارحمونى . . . ارحمونى . . .

طار نومى من عيونى

وتنبه صاحب البيت وقال وهو يفرك أجفانه الحمراء :

— عيون من التى طار نومها ؟ ...

— عيونى أنا طبعاً ...

— آه ... طبعاً ... عيونك انت فقط ! ...

ومضى الضيف فى التلاوة ، حتى قطع فيها شوطاً ، فلم يجد لإنشاده صدى ، ولم يسمع على خريدته تعليقاً ... فرفع بصره إلى ذلك الذى يلقى عليه أبياته ، وينثر عليه آياته ، فوجده يترنح ويتمايل ... لا من الاعجاب ... ولا من الطرب ... طبعاً ...

فكف عن القراءة وصاح :

— أنا آسف ، يظهر انك متعب ، خير الأمور أن تقوم ...

فأيقن النائم بالفرج ، ولم ينتظر ، ووثب من مقعده ، كأنه عبد أعتق ، أو سجين أطلق ، ولسانه يلهج بالشكر ، ولكن الضيف استأنف :

— نعم ... خير الأمور أن تقوم فتصب على رأسك كمية من الماء البارد ، لتفيق وتنشط وتسمع بقية القصيدة ، لأنها طويلة جداً ...

وهنا لم يطق صاحب البيت صبراً ... ولم ير في ذمته للضيافة حقاً .. فانفجر يلعن الحب والمحبين ، والشعر والنثر ، وقصائد الغناء والبكاء . وكل ما على الأرض من نساء .. وترك المكان .. وذهب إلى حجرته ، واندس في فراشه ونام . . .

* * *

مرت شهور على تلك الليلة ، وهو لا يعلم من أمر صديقه المتيم شيئاً ... ثم ترامت إليه الأخبار بأن ذلك الغرام الذى أنشدت فيه القصائد بعد منتصف الليل ، قد جر صاحبه إلى أحرج المآزق ، فالحبيبة معلقة بعنقه كأنها قصـــيدة من المعلقات ! ... لا بد من الزواج ... تلك صيحتها التى لا تنزل عنها ، وبغيتها التى لا مفر منها ... ولكن كيف يتزوجها ، وقد عرف عنها ما عرف ؟ ... إنها فتاة لعوب ، من أولئك الفتيات المعروفات على شواطىء المرح ، المبرزات فى ملاهى الغـــزل . كم داعبت ولاعبت ... وفتنت وسحرت ... ولو أنطق الله سلك التليفون لجهر بعدد مغازلاتها ... ولو تحدثت رمال البلاج وموائد « الأوبرج » ، لما اختلفت على مقدار غمزاتها وبسماتها ولفتاتها ...

ووقف حبيب الأمس وقفة الذائد عن عنقه ، الغيور على اسمه وشرفه ... كل شىء إلا الزواج من هذه الفتاة ... إن الحب

شيء والزوجية شيء آخر ... إنه ليس مغفلا حتى يخلط بين مسائل الغزل ومسائل المستقبل ... لا ... لن يتزوجها ... على الرغم من جمالها الفاتن ومركز أسرتها البارز ... أما هي فقالت بلسانها ولسان من توسط في الأمر أن لعب الفتاة قبل الزواج لا يدل على شيء ، وقد أصبح مألوفا في عصرنا الحاضر ... عصر الحرية والنور ... فكثير من الزوجات الناجحات شبعن لعبا ومغازلة قبل الزفاف ... إنها حجة واهية ، يجب ألا يتذرع بها رجل جاد ...

وانتصرت المرأة في النهاية ، كما تعودت دائماً أن تنتصر ... ووقع الرجل في « الزوجية » كمن يقع في « حفرة » ... لا يدرى كيف لان وأذعن ، وقال « نعم » ... ولا يذكر بالضبط كيف ساخت قدمه ... ولكنه أخذ يعلل نفسه ويمنيها ويقنعها بقوله : « مع غيرى ربما صحت المخاوف ... ولكن معى أنا ، مع مثلي! ... وأنا أعرفها أكثر من أمها التي ولدتها ، وهي تعرفني وتعرف طباعي العنيفة وشكيمتي القوية وغيرتي الشديدة وعيني الساهرة » ...

* * *

هذا ما كان من أمر الضيف المغرم ، وأما ما كان من أمر صاحب البيت ، فهو لا يعرف الشعر ولا الحب ... وكل ما يعرف أن وحدته في بيته قد ثقلت عليه ... وأن البيت بلا امرأة ، جسد

بلا روح .. وأن همه فى منزله أن يخرج من حجرة ليدخل أخرى،
ولسان حاله ينطبق على الأغنية الشعبية القديمة :

« العزوبيـــة » طالت عليــه
يا أمى اخطبى لى حـــلوة وغنية

ولم يكن لديه أم تخطب له ... ولم يكن من الضرورى عنده أن يتشبث بشرط الحلوة الغنية .. يكفيه الحل الوسط ... إنه رجل مسالم قنوع... ولكن ، من يبحث له ؟... وهنا تذكر سيدة من صديقات الأسرة ... امرأة نصف وزوجة رجل محترم ، لها علم راسخ بأخبار المجتمع الراقى ... خاطبها بالتليفون ، وأبان لها عن طلبته ... فقالت ضاحكة : « أتقبل نصيحتى ؟ ... الزواج فى عصرنا الحاضر كما يقول المثل السائر : « على عينك يا تاجر » ... الطريقة المتبعة الآن أن تحضر المجتمات والحفلات وتختار من تعجبك ، وتسأل عنها ... وها هى الفرصة سانحة ... فى الأسبوع المقبل حفلة خيرية فى « الأريزونا » ستلتق فيها كل أنيقات القاهرة، من ســـيدات وفتيات ... تعال وانظر ... واخبرنى هناك وأنا أدلك » ...

* * *

ووافى موعد الحفلة الخيرية ... وكان مساء جميلا .. لمعت فيه

عيون النجوم وتألق القمر ... فارتدى رداء السهرة ، وذهب على بركة الله ... ولم يمض قليـــل ، حتى غاص فى بحر أضواء السماء والكهرباء والنساء ، وأوغل فى روضة الشجر والبشر... وامتدت حوله أيدى الأغصان وأذرع الحسان.. واستقبلته كواعب بائعات الفتنة فى صورة بائعات للورد ... وأحطن به من يمين ومن شمال ... إنه حصار الجمال ... ورد يبيع ورداً ... وأزهار تحمل أزهاراً ... فأخرج من جيبه النقود عن غير وعى ، ونثر وبذر ، ليحصد البسمات والنظرات ... ها هى ذى سوق الملاحة والرشاقة والدلال ، ماذا يأخذ منها ، وماذا يدع ؟... ومن يحب ومن يكره ؟... ومن ينبذ ومن يختار ؟... فغشى بصره ، وزاغ نظره... وارتبك وحار ... ثم انتبه على صوت يناديه ... فإذا هى السيدة الخبيرة التى سألها هدايته .... أقبلت عليه وقادته كالربان الماهر ، فى خضم موائد الأكل ومواكب الحسن ... وهمست فى أذنه :

— ألم تعجبك واحدة ؟...

فقال على الفور :

— أعجبنى الكل : أحب هذه ذات الثوب الوردى ، وأحب تلك ذات الثوب البرتقالى ، وأحب الدانية ذات الثوب البنى ... وأحب البعيدة ذات الثـــوب الكحلى... وأحب الضاحكة ذات

الثوب البندقى ، أحب هذه ، وهذه ، وهـذه ، وهذه . .
أحب الجميع ...

فضحكت وقالت :

— ليس من المعقول أن تتزوج كل الحفلة ... يجب أن يقع اختيارك على واحدة بالذات ...

— هذه الحفلة « الخيرية » وإن شئت فقولى « سوق النخاسة العصرية » ، تعج ببضاعة تبهر العقل ... ولم أعد أدرى أأنا البائع فى هـذه السوق أم المشترى ؟... لقد تهت وضللت ... تخيرى لى أنت بصائب حكمتك وواسع خبرتك ! ...

فأشارت إلى مجموعـة من النساء متلألئة ، تزرى بالمجموعـة الشمسية ، وقالت :

— ألق نظرة على هؤلاء ...

— أكلهن للزواج ؟ ...

— بالطبع ... كل من ترى هنا . الفتيات يردن أن يتزوجن والزوجات يردن أن يتطلقن ...

فأرسل نظرة شاملة على تلك النحور العارية ، والصـــدور المكشوفة ، والبسمات الفاتنة ، والنظرات المفتونة ، وقال فى نفسه : أين ذلك العهد الذى كانت تسمى فيه المرأة « السيدة المصونة

والجوهرة المكنونة ؟! ... ترى ماذا يجب أن تسمى اليوم؟ ...

وأخذ يفكر فى اسم أو لقب أو وصف يمكن أن ينطق عليها الآن ... ولكن حبل تفكيره انقطع فجأة ... فقد لمح عن بعد صديقه الضيف ، صاحب القصيدة ، يدخل من الباب ، وقد أحاطت به بائعات الورد كالمعتاد ... ولمحته فى عين الوقت السيدة الدايلة الهادية ، فهمست قائلة :

— صاحبك ! ..

— نعم ... إنه يدخل وحده.. عجباً !.. أين زوجته إذن ؟ ... ملغنى أنك كنت إحدى الساعيات فى الخير بينهما ... وكنت ممن توسط فى أمر ذلك الزواج ...

فقالت السيدة بصوت ألجد :

— حقيقة... شوشو صديقتى ، وكنت أظنها تمشى بعقل بعد زواجها ... ولكن ، كلام فى سرك ... أنا لا أحب أن أكون مسئولة عنها الآن ... أنا أفهم أن يكون للزوجة بعض الحق فى اللهو ... ولكن على شرط أن تكون فى منتهى الحذر حتى لا يلحظ عليها شىء ... وأن تتصرف بغاية الحرص حتى لا يبدو على سلوكها شك ... أما شوشو فلا أدرى ماذا جرى اليوم لعقلها ... إنها ـ فضلا عن علم الجميع بأن لها حتى الآن أربعة عشاق أو خمسة

فى نفس الوقت ـ لا تحاول أن تدارى أمورها ، أو تستر تصرفاتها ... تصور أنها فى وضح النهار تنزل من سيارتها أمام دهبية معروفة ومعها حقيبة صغيرة تحوى « بيجامتها » الحريرية ... وكل هذا تحت سمع السائق وبصره ، وتحت نظر من يمر من المعارف والفضوليين الذين قد يعرفون السيارة وصاحبها ... لا ... شوشو فى الحقيقة متهورة اليوم أكثر من اللازم ، وإنى أرى منها كل ذلك وأقول فى نفسى : « ربنا يستر » ... فكل الناس يعرف سيرها الآن ... أمرها شاع ورائحتها فاحت ...

ـ وزوجها ... ألم يشم الرائحة ؟ ...

ـ الظاهر أنه مزكوم ، كأكثر الأزواج ...

وكان زوج شوشو عندئذ قد تخلص من بائعات الورد ، وسار يفحص بعينيه الجموع ، كأنه يبحث عن أحد ... حتى أشرف عليهما ... فلما صار على خطوات منهما لمحهما هو الآخر فأسرع نحوهما وحياهما ... وعاتب صديقه صاحب البيت عتابا هادئا يخالطه المزح ، لما لقيه فى بيته من إهمال ، تلك الليلة التى تفجرت فيها شاعريته ... على أنه انتقم ، كما قال ، فلم يدعه إلى حفلة قرانه ولا إلى بيت عروسه ... وهنا التفت إلى السيدة قائلا بلهجة العجلة واللهفة :

— شوشو ... ألم تلمحيها هنا ؟... لقد سألتنى أن أسبقها ... قائلة إنها ستمر ببعض صديقاتها أولا ... وقد رأيت الذهاب لبعض أعمال أخرتنى ، وجئت حاسباً أنى أجدها ... لاشك أن حديث صديقاتها شغلها عن الوقت... إنه لمن حسن الحظ أن أقابلك هنا الليلة ... إنها خير مناسبة أقدم لك فيها شكرى .. كاد يمضى نصف عام على زواجى ، الذى توسطت أنت فيه ولو تعلمين كم أنا سعيد ! ... لقد كنت مغفلا يوم ترددت وتمنعت وتخوفت ... ألا تذكرين كم جاهدت أنت لاقناعى ؟... الحق كان فى جانبك... شوشو اليوم ملاك ... وإنى أضحك من نفسى لرأيى السابق فى طيشها ! ... إنك ولا شك قد لاحظت اليوم كم تغيرت وعقلت .. الحمد لله ، مخاوفى كانت فى غير محلها ... لقد ظلمت المسكينة . وهى فى الحقيقة زوجة طيبة مخلصة يندر أن يوجد لها مثيل ...

ومضى فى هذا الكلام ... وصديقه « صاحب البيت » يصغى إليه فاغراً فاه ... لايصدق ما يسمع ... إلى أن تأكد له أن أذنه لم تخدعه ... فهمس قائلا :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ! ...

ولم يلبث هذا الزوج أن جذبته من ذراعه يد أحد المعارف ... فاستأذن ومضى معه إلى مائدة عامرة بالأصدقاء وترك صاحبه

و السيدة الدليلة الهادية يتبادلان النظرات ، صامتين بلا تعليق .
وأخيراً نطقت السيدة قائلة :

— والله شاطره ! ...

ـ شاطره !؟... وهل هـــذا مصيرى أنا أيضاً ؟ ... وهل نصيحتك لى ستكون من هذا القبيل ؟ ...

فضحكت وقالت :

ـ لا ... لا تخف ... ظروفك أنت مختلفة كل الاختلاف ومع ذلك ... ما دمت قد رأيت بعينك وسمعت بأذنك فلا يصح لى ان أغشك ... هل تريد الصراحة ؟... إذن اسمع رأيى : هذا جيلك الجديد وهذا عصرك ... خـــذ الأمور كما هى ولا تخدع نفسك واعلم أن أكثر النساء هنا لكل واحـدة منهن على الأقل عشيقان أو ثلاثة ... وإن تلك التى يقال إنهـا نظيفة السمعة ولم يسمع عنها أحد شيئاً ، هى التى لها عشيق واحـد ... فإذا أردت منى أن أغالطك ، أو أن أشجعك على مغالطة نفسك ، فهذا أمر آخر .. ولـكنى أنصحك أن تنظر إلى الواقع اليوم بعين الواقع ...

وسكتت لأن الموسيقى الراقصة دوت فى المكان ... وقام من كل مائدة زوجان .. ودق الطبل ورن النحاس وعوى « السكسوفون » .. فكان لمزيج أصواتهـا صدى يشبه صراخ

الحيوان الجوعان . . . ولعبت الأجساد بالأجساد ... واحمرت العيون ، ونديت الشفاه ، واتسعت الأحـداق . . . واضطربت الأفكار فى رأس «طالب الزواج» ماذا يصنع ؟... وماذا يقول؟... وعلى ماذا يعول ؟...

وظل فى اختلاط فكره وحيرة رأيه ما ظلت الرقصة فى اختلاطها ولعبها بأفئدة الراقصين والمشاهدين . . . إلى أن انتهت الرقصة . . . وصمتت الموسيقى ، وصفق الحاضرون . . . وأقبل البعض على البعض يتحادثون ... فالتفتت السيده الهادية إلى زميلها الخاطب قائلة :

— لم أتلق جوابك ... ماذا قررت ؟ ...

فأطرق لحظة ، ثم رفع رأسه وقال :

— أمرنا إلى الله... ابحثى لنا إذن عن واحدة شريفة ، عفيفة ، سمعتها طيبة ، ليس لها غير عشيق واحد !!! ...

الشيخ البلبيسى

لم أره قط رؤية العين... ولكنى سمعت به ممن رأوه وعرفوه... فقد كان لذلك الرجل صيت فى الأقاليم منذ أكثر من ثلث قرن... كان رجلا فارع الطول ، فيما يقال ، ضخم الجرم ، ذا هيئة تفرض على الناس التبجيل والاحترام ... وكان شديد العناية بثيابه ، لا يرتدى منها إلا ما غلا فى الثمن وزاد فى المهابة ... كان عظيم الهامة ، أشيب اللحية ، طويل المسبحة ، كبير العمامة ...

* * *

روى لى محدثى عنه قائلا :

ـــ عرفت الشيخ «البلبيسى» لأول مرة فى دار الباشا المدير... دخلت عليهم فى تلك «المنظرة» التى كان يجتمع فيها من حين إلى حين جلة علماء المديرية وأكابر أعيانها : فأبصرت «الشيخ» بطلعته الجليلة فى صدر المجلس ، فما شككت فى أنه أعظمهم فضلا وأرفعهم قدراً ... فلما قدمنى إليه المدير ، لم أنتظر حتى أعى اسمه ، وانكببت ، لهيبته ، على يده أقبلها ... فسحبها منى برفق وأفسح لى مكاناً إلى جواره ، وهو يقول بصوته الوقور :

أستغفر الله يا بنى ، أستغفر الله ! .. على من أخذت العلم

فى الأزهر الشريف !؟ ...

فعلت وجهى حمرة الخجل وقلت :

— لم أدرس العلم ... ولكنى رجل مزارع من ذوى الأملاك ...

فربت على بكفه قائلا :

— وأنعم بالزراعة والزراع ! ... من يزرع خيراً يحصد خيراً ، ومن يزرع ...

وسعل سعالا خافتاً غريباً كأنه عواء ... جهد فى كتمه بكمه ومضى يقول متلطفاً :

— كيف اتفق أننى لم أرك هنا من قبل ؟ ...

فقلت وأنا ألقى نظرة على الباشا المدير المتشاغل عنا بضيوفه وهم يتحدثون ، فيما بينهم ، هامسين ، حتى لا يزعجونا ، فيما اعتقدت ، بأصواتهم :

— انى قليل المجىء إلى البندر ... ولا أغادر أرضى وعزبتى إلا إذا دعتنى إلى ذلك المصالح أو الضرورات . . .

فقال الشيخ وهو يعد بأصابعه المرتجفة حبات مسبحته :

— حسناً فعلت يا بنى ... لقد قالوا فى الأمثال : الأرض التى لا ترى قدم صاحبها لا تفلح ...

وســـعل ذلك السعال الغريب المكتوم وقد وضحت معالمه

المشابهة لعواء الكلب .. فأخذتني رعدة ... وأحس ذلك مني ... فمال على أذني هامساً :

— هل أزعجك سعالي ؟ ... لا تخش شيئاً . . . هذا أمر يأتي أحياناً ويمر مر الكرام . . .

فقلت له باطمئنان :

— بل لا تنزعج فضيلتك . .. إنما هو برد عارض من برد هذه الأيام . . .

فقال لي بنبرة وفورة هامساً :

— لا . . . يا بني ... هـــذا ليس ببرد . . . اني ما تعودت الكذب ... إنما هو مرض آخر ...

— ليس خطيراً على كل حال ...

— أرجو أن يبرئني الله منه . . .

وسعل ... أو على الأصح عوى كالكلب ... وهو يسد فمه بكمه حتى لا يبلغ الصوت أسماع الحاضرين ... وألقى عليهم نظرات قلقة مضطربة ... وهمس في أذني :

— لعل سعالي لم يصل إليهم ... أما أنت فمثل ابني ... ولعلك تكتم عني ... إنها بلية ، ابتلاني بها الله ... وهو لا يبلو إلا عباده الصالحين ... أسأله تعالى أن ينهي هذه الأزمة على خـــير حتى

أنصرف عن هذا المجلس . . .

فأخذتنى به شفقة ... ورأيته يلم أطراف عباءته ، ليسرع بالنهوض ، ولكن السعال أو العواء أدركه . . . فلبث فى مكانه يحشو فمه بكمه ... حتى هدأ قليلا ... فقلت له :

— أما من علاج لهذا ؟ ...

— العلاج بيد الله ... وأخشى أن يكون قد فات أوانه . . . كل ما أرجوه ألا يكون دائى خطراً على الناس ... كفى ما حدث لذلك الخادم المسكين . . .

— ماذا حدث له ؟ ...

قلتها مرتاعا ... فقال بصوت مرتجف متعب جاف :

— اشتدت علىّ الأزمة يوما ... وقيل إنى كنت أسعل سعالا كعواء ذلك الكلب « المسعور » الذى عضنى ... فلما أراد خادمى إسعافى ومعونتى هبرته بأسنانى وعضضته عضة أدت إلى وفاته ... رحمه الله رحمة واسعة ! ... ورحمنى أنا أيضاً وغفر لى ...

وقطع سعاله حديثه ... وجعل يمزق كمه بأسنانه ، حتى لا يخرج الصوت من فمه واضحاً ... وجعلت أنا أحاول التزحزح من مكانى مبتعداً عنه من الخوف ... ولكن احترامى له وعطفى عليه وحرصى على شعوره وخشيتى من لفت الأنظار إليه ... كل هذا سمرنى فى

مقعدى ... فتجلدت وقلت له بصوت متهدج :

— إنها ولا شك أزمة خفيفة ستمر ...

ولم أتم ... فقد جحظت عيناه ... وتغير وجهه .. وأرغى وأزبد .. وكشر عن أنيابه ، وانقلب ـ فى لحظة ـ ذلك الشيخ الوقور ، إلى كلب خطر عقور ... وترك كه وفغر فاه بعواء سافر مرعب ... ومد يديه نحوى كأنهما مخالب ... وهم بالهجوم علىّ ... وهنا لم أدر من الفزع إلا وأنا أثب نحو الباب وثبة ، صدمتنى بعارضته الخشبية صدمة ، مابرح أثرها باقياً فى جبينى ... وما كدت أجد نفسى فى فناء الدار ... حتى صحت من حلاوة الروح بالخدم والحجاب :

— الحمد لله ! ... هربت بجلدى ... لكن المصيبة هى مصيبة الباشا المدير وضيوفه ... لقد أكلهم فضيلة الشيخ ونهشهم وانتهى الأمر ! ...

وأردت أن أدفع بالحجاب إلى داخل « المنظرة » لينقذوا من يمكن إنقاذه ... وإذا بى أرى الباشا المدير وضيوفه ، يتوسطهم « الشيخ » الجليل ، خارجين من الباب يتمايلون ، والضحك يكاد يقطعهم تقطيعاً ...

* * *

فلما انكشفت لى الحقيقـــة وأبديت احتجاجى .. قال لى المدير باسماً :

— ألا تعرف الشيخ « البلبيسى » ونوادره ودعاباته ؟ ! ...
هذا هو الشيخ البلبيسى ... هل تعرفه الآن ؟...

فأشرت إلى الصدمة فى جبهتى وقلت مبتسما :

— معرفة تركت فىَّ أثراً ! ...

فتقدم نحوى « الشيخ » كما يتقدم الممثل بعد أن مسح عن وجهه طلاء التمثيل وقال :

— الحمد لله على السلامة ! ... إن شاء الله قريباً ...

فقاطعته صائحاً :

— مستحيل ... لا يلدغ - بل قل ... لا يعض - مؤمن ...

فبادر هو يكمل العبارة :

— من كلب مرتين .. هذا صحيح ... ولكن من قال لك إنى سأكون كلباً فى المرة القادمة ؟ ...

— إذا قابلتنى فى المرة القادمة فكن كما شئت وشاءت لك براعتك .

* * *

ولم أقابله بعدها أبداً ... إلى أن مات وذهبت أيامه ... ولم يعد لهذه المجالس و« المنادر » وجود ... وانقرض هذا النوع من الناس ... وانقرض معه نوع من المواهب الطبيعية يتفجر من السليقة الإنسانية ، كان لازماً لادخال الأنس على مجالس ذلك العهد ...

إن لكل عصر رجال أنسه ... ولكن عصر « المنادر » كان له رجال قلما يجود بمثلهم الزمان ...

لا آسف على شيء أسفي على أني لم أقابل «الشيخ البلبيسى» مرة أخرى ... وإن كنت على ثقة من أنه كان سيترك فى مرة أخرى أثراً لا يمحى ...

إبليس ينتصر

اتخذ قوم شجرة ، صاروا يعبدونها ... فسمع بذلك ناسك مؤمن بالله ، فحمل فأساً وذهب إلى الشجرة ليقطعها .. فلم يكد يقترب منها ، حتى ظهر له « إبليس » حائلا بينه وبين الشجرة ، وهو يصيح به :

— مكانك أيها الرجل ! ... لماذا تريد قطعها ؟...

— لأنها تضل الناس ...

— وما شأنك بهم ؟... دعهم فى ضلالهم ! ...

— كيف أدعهم ... ومن واجبي أن أهديهم ...

— من واجبك أن تترك الناس أحراراً ، يفعلون ما يحبون...

— إنهم ليسوا أحراراً ...إنهم يصغون إلى وسوسة الشيطان...

— أو تريد أن يصغوا إلى صوتك أنت ؟! .

— أريد أن يصغوا إلى صوت الله ! ..

— لن أدعك تقطع هذه الشجرة ...

— لا بد لى من أن أقطعها ...

فأمسك إبليس بخناق الناسك ... وقبض الناسك على قرن الشيطان ... وتصارعا طويلا ... إلى أن انجلت المعركة عن انتصار

الناسك ... فقد طرح الشيطان على الأرض وجلس على صدره وقال له :

— هل رأيت قوتى !...

فقال إبليس المهزوم بصوت مخنوق :

— ما كنت أحسبك بهذه القوة ...دعنى وافعل ما شئت ...

فخلى الناسك سبيل الشيطان... وكان الجهد الذى بذله فى المعركة قد نال منه ... فرجع إلى صومعته واستراح ليلته ...

فلما كان اليوم التالى حمل فأسه ، وذهب يريد قطع الشجرة وإذا إبليس يخرج له من خلفها صائحا :

— أعدت اليوم أيضا لقطعها !؟ ...

— قلت لابد لى من أن أقطعها ...

— أو تظنك قادراً على أن تغلبنى اليوم أيضاً ؟ ...

— سأظل أقاتلك حتى أعلى كلمة الحق ! ...

— أرنى إذن قدرتك ! ...

وأمسك بخناقه . . . فأمسك الناسك بقرنه . . . وتقاتلا وتصارعا ... إلى أن أسفرت الموقعة عن سقوط الشيطان تحت قدمى الناسك ... فجلس على صدره وقال له :

— ما قولك الآن فى قوتى ؟! ...

ـ حقاً ... إن قوتك لعجيبة ... دعنى وافعل ما تريد ...

لفظها الشيطان بصوته المتهدج المخنوق . . . فأطلق الناسك سراحه ... وذهب إلى صومعته واستلقى من التعب والاعياء حتى مضى الليل وطلع الصبح فحمل الفأس ، وذهب إلى الشجرة فبرز له إبليس صائحاً فيه :

ـ ألن ترجع عن عزمك أيها الرجل ؟! ...

ـ أبداً ... لابد من قطع دابر هذا الشر ! ...

ـ أتحسب أنى أتركك تفعل ؟! ...

ـ ان نازلتنى فإنى سأغلبك ...

فتفكر إبليس لحظة ... ورأى أن النزال والقتال والمصارعة مع هذا الرجل لن تتيح له النصر عليه ... فليس أقوى من رجل يقاتل من أجل فكرة أو عقيدة ...

ما من باب يستطيع إبليس أن ينفذ منه إلى حصن هذا الرجل غير باب واحد : الحيلة ...

فتلطف الناسك وقال له بلهجة الناصح المشفق :

ـ أتعرف لماذا أعارضك فى قطع هذه الشجرة ؟!... إنى ما أعارض إلا خشية عليك ورحمة بك ... فإنك بقطعها ستعرض نفسك لسخط الناس من عبادها ... مالك وهذه المتاعب تجلبها على

نفسك؟... اترك قطعها وأنا أجعل لك فى كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك ... وتعيش فى أمن وطمأنينة وسلامة ! ...

— دينارين !؟ ...

— نعم ... فى كل يوم ... تجدهما تحت وسادتك ! ...

فأطرق الناسك ملياً يفكر ثم رفع رأسه وقال لإبليس :

— ومن يضمن لى قيامك بالشرط !؟ ...

— أعاهدك على ذلك ... وستعرف صدق عهدى ...

— سأجربك ...

— نعم ... جربنى ...

— اتفقنا . . .

* * *

ووضع إبليس يده فى يد الناسك ... وتعاهدا ... وانصرف الناسك إلى صومعته وصار يستيقظ كل صباح ، ويمد يده ويدسها تحت وسادته فتخرج بدينارين ... حتى انصرم الشهر ... وفى ذات صباح دس يده تحت الوسادة فخرجت فارغة ... لقد قطع إبليس عنه فيض الذهب ... فغضب الناسك ... ونهض فأخذ فأسه ... وذهب إلى قطع الشجرة ... فاعترضه إبليس فى الطريق ، وصاح فيه :

— مكانك ! ... إلى أين ؟ ...

— إلى الشجرة ... أقطعها ! ...

فهقه الشيطان ساخراً ...

— تقطعها لأنى قطعت عنك الثمن ! ...

— بل لأزيل الغواية وأضيء مشعل الهداية ! ...

— أنت ؟! ...

— أتهزأ بى أيها اللعين ؟! ...

— لا تؤاخذنى ! ... منظرك يثير الضحك ! ...

— أنت الذى يقول هذا ، أيها الكاذب المخاتل ؟! ...

* * *

انقض الناسك على إبليس وقبض على قرنه ... وتصارعا لحظة ...

الحركة تنجلى عن سقوط الناسك تحت حافر إبليس ...

انتصر وجلس على صدر الناسك مزهواً مختالا يقول له :

— أين قوتك الآن أيها الرجل ؟! ...

فرج من صدر الناسك المقهور صوت كالحشرجة يقول :

— أخبرنى كيف تغلبت أيها الشيطان !...

قال له إبليس :

— لما غضبت لله غلبتنى ، ولما غضبت لنفسك غلبتك ...

قاتلت لعقيدتك صرعتنى ، ولما قاتلت لمنفعتك صرعتك !...

نصيب

فى حياة كل رجل لحظة يشعر فيها فجأة بأنه مثل غطاء الطبق الذى لا يجد طبقه ، والويل لمن لا يفطن إلى هذا الشعور إلا متأخراً ، إنه يترك عندئذ كل شىء وينقلب مجنوناً بتلك الفكرة المسيطرة : البحث عن شطره الآخر ... كان بطل هذه القصة من هذا النوع من الرجال ... شاب مجد طموح ... تخرج فى الجامعات مهندساً بارعاً ... درس فى مصر ثم فى الخارج ، وكان فى مقدمة أقرانه دائماً .. لا يعرف غير العمل ولا تنظر عيناه غير طريق مستقبله الناجح ... وقد ركض فى هذا الطريق بالفعل حتى بلغ درجة « مدير أعمال » وكاد يشرف على الخامسة والثلاثين وهو مستغرق هذا الاستغراق فى عمله الهندسى . وإذا بغتة تدهمه هذه اللحظة الحاسمة ... وإذا هذا الغطاء الذى كان يجرى على « سنه » ناهباً الأرض كأنه كل شىء ، قد اصطدم بجدار تلك اللحظة العجيبة فوقف ودار حول نفسه دورات، ثم انبطح على ظهره ورن معدنه رنيناً مكتوماً، وكأنه يهمس : «ما أنت إلا غطاء الطبق»! ... وأفاق المهندس بعدئذ وليس فى رأسه غير فكرة واحدة : الزواج ...

ودهش أصدقاؤه لرنين هذه الكلمة فى فمه ، فهم لم يسمعوها

قط منه ، ما الذى حدث ؟... وهم الذين طالما فاتحوه من قبل فى هذا الأمر ، فلم يجدوا منه غير الصدوف وعدم المبالاة ... لقد كان كلما ذكرت أمامه « الزوجة » ـ أو النصف الآخر ، أو « شريكة الحياة » ـ يبدو عليه كأن الموضوع لا يعنيه ولا يفهم مغزاه ، ويبسم أحياناً ابتسامة المتعجب لغلو الناس فى الوصف وإسرافهم فى التعبير ... لقد كان يحس إحساساً أكيداً أنه كامل بنفسه ... وأنه واحد صحيح ، لا نصف ، ولا ثلث ، ولا كسر من عدد .. إنه درس الحساب والجبر والرياضيات العليا فمنذا يقنعه بأنه أقل من رقم ، وأنه نصف فقط ، وأن هنالك نصفاً آخر فى مكان ما ينقصه ليكون الناتج واحداً صحيحاً ؟ ... هذه المسألة الحسابية الآدمية من الذى وضعها ؟... ولماذا ؟... ولمصلحة من ؟... لا ... لا ... إنه لا يظن الطبيعة مشغوفة إلى هذا الحد هى الأخرى بعلم الحساب ؛ لتجعل من الرجال والنساء أرقاماً أو كسوراً من أرقام تجمع بينها وتطرح ... كان هذا كلامه فيما مضى ... أما الآن فهو يقول لأصحابه : « صدقتم ... الحياة حساب ... الحياة مسألة حسابية ... أنا كسر ... أنا نصف ... اجمعونى من فضلكم على النصف الآخر »!... لكن بقيت المعضلة الكبرى : كيف العثور على ذلك النصف؟ ... هل يترك الأمر للمصادفة ، أو عليه هو بالسعى ؟... هل القدر هو

الذى يخط على لوح الوجود ـ بالطباشير ـ جامعاً الأنصاف بعضها إلى بعض ؟... أو أن على الرقم المشطور أن ينفلت هو بنفسه من تحت أصبع القدر وطباشيرته ويسرع زاحفاً على اللوح بحثاً عن بقيته ؟ ... ولبث المهندس أياماً لا يلقى على معارفه المتزوجين غير هذا السؤال الذى لا يتغير : « كيف عرفت زوجتك ؟... » ، وكانت الإجابات مختلفة ، فمنهم من يقول : « رأيتها فى سهرة عند بعض الأقارب أو الأصدقاء » ، ومنهم من يجيب : « قابلتها فى سوق خيرية فأعجبتنى ، فسألت عنها » ، ومنهم من يذكر : « كانت على البلاج ، فتبعتها وعرفت عنوانها » ، ومنهم ـ وهم الندرة فى هذا الزمان ممن يؤمنون بالنصيب، أو اليانصيب ، ولا يرضون بطرائق الاختيار الحديثة ـ من همس له : « والله البركة فى الخاطبة أم شلبى » .. وحار المهندس فى هذه الأساليب ، جديدها وقديمها ، لكنه لم ينكر ولم يرفض ولم يعترض ... لقد قبلها كلها ... كل سبيل يؤدى إلى شطره الآخر ان يتردد فى سلوكه ... لقد فتح عينيه واسعتين ، وذهب بهما يجوس خلال السهرات والطرقات والشواطىء والأسواق ... لكن ... وا أسفاه : أما هذه فقصيرة وأما تلك فطويلة ... والأولى أنفها لا يروقه والثانية فمها لا يعجبه ... ثم إذا هو أغضى عن المظهر فمن يدريه بالمخبر ؟ ... لقد جند كل

أصدقائه وزوجاتهم للبحث معه ... ذلك أنه لم يكن له أقارب فى القاهرة ... فإن أهله فى الريف ... وليسوا ممن يحسنون فهم ما يريد ... ولم تكن صلته بهم تبيح لهم التدخل فى شئونه ، فقد كانوا أقارب من درجة بعيدة ... لأن والديه ماتا بعد تخرجه فى الجامعة بقليل ... لذلك كان اعتماده على معارفه ... وأغلبهم كان يرتاب فى أنه يأخذ الأمر اليوم على سبيل الجد ... فكانت معاونتهم له ضئيلة فاترة فى أكثر الأحيان ، ثم زادهم فتوراً وانفضاضاً من حوله ما رأوه من تردده فى الاختيار وعدم بته فى الأمر ، ونبذه كل فتاة عرضت عليه بحجج مختلفة ... على أنه لم يكن فى الحقيقة متعنتاً ولا متعللا ، إنما هو ذهنه كان قد صور له امرأة بملامحها وخصالها ، وأوهمه أن تلك هى نصفه الذى لا يرضى به بديلا ... فهو لا يريد أن ينتقى إلا طبقاً للنموذج الموضوع فى رأسه ... وطال بحثه عبثاً وذهب جريه سدى ... فقعد ذات مساء يائساً ونظر إلى السماء قائلا : « تعبت أيها القدر !... الكلمة لك أنت الآن ... سأغمض عينى وأمد يدى ، فضع فيها من تشاء !... » وما جاء الصباح حتى أرسل فى طلب الخاطبة أم شلبى ، نعم ... ولم لا ؟... مادام قد نزل عن نماذجه وصوره ، وقنع بالنصيب المكتوب فى اللوح ، وأسلم قياده للقدر يخط بيده ما يريد ... فماذا يصنع غير ذلك ؟...

أليست أم شلبي من عملاء القدر أو من أدواته ؟ ... من يدرى ؟ ... لعلها هى الطباشيرة فى أصبعه ... إذ لا يمكن للقدر أن تكون له وسيلة أخرى يفرض بها فى مثل هذا الأمر إرادته السماوية ... وأقبلت تلك «الطباشيرة»، فإذا هى امرأة ضخمة بدينة سمينة جسيمة كأنها فيل ... وهل ينتظر أن يملأ يد القدر أو يليق بأصبعه حجم أقل من هذا الحجم؟!.. وعرض المهندس الخاطب طلبته، ووصف لها على قدر الإمكان بغيته.. فمضت المرأة واختفت أياما ثم عادت ومعها سجل حافل بأسماء الأسر، ومنديل كبير يضم عدداً من الصور الفوتوغرافية لفتيات على كل طراز .. فوقع فى حيرة جديدة : كيف يتخير وأيها يختار ؟... وحدثته الخاطبة فيما حدثت عن فتاة تصلح له ... ولكن - يا خسارة - ! ... تقدم إليها خاطب طيب ليس من السهل رفضه... تصلح لى ؟... وأين صورتها ؟... وخيل إلى المهندس فى تلك اللحظة أن هذه الفتاة هى امرأته ونصفه وحلمه، وأن عليه أن يختطفوا من منافسه اختطافا ... وأين صورتها ؟... فقالت الخاطبة أن أهلها رفضوا كل الرفض أن يعطوها أية صورة لها ... ولكنها جميلة وأى جمال فتشبث المهندس بأذيال الخاطبة وصاح : «لابد من الصورة».. ففكرت ملياً ثم نظرت إليه نظرة دهاء، فمثلها لا يعجز عن الحيلة ... لقد لمحت فى بهو الدار صورة

الفتاة معلقة على الحائط ... فهى ستذهب إليهم لتخبرهم بأمره ... ثم تغافلهم وتخطف الصورة المعلقة وتأتى بها إليه ... نهضت من فورها وذهت وتركت المهندس فريسة ذلك الإحساس ... إنها هى ... إنها هى ... لقد وجدها أخيراً ما سر هذا الشعور ؟ ... أتراه الغموض الذى يشملها ؟.. إنه لم يرها وينازعه فيها منذ الآن منازع ... كيف هى ؟ ... وهل يفوز بها ؟ ... إنه واثق أن صورتها هى صورة المرأة التى بحث عنها ... ولبث يفكر فى ذلك طول مسائه... وتقدم الليل وأراد أن يأوى إلى فراشه ... ولكن النوم استعصى عليه فقام وأضاء المصباح الكهربائى الصغير فوق رأسه ، وتناول كتاباً يهدىء من أعصابه الثائرة ... وإذا نظره يقع على صفحة تحتوى قصة قديمة لرجل من بلاد السند كان يبحث هو أيضاً عن زوجة أحلامه ، فكان بحثا عضاً على غير طائل ، فقال له قائل : «لا تيأس... ابحث عن الزوجة ولو فى الصين» فلم يبطىء الرجل... وركب فى الحال البحر إلى بلاد الصين فكسر المركب به وبمن معه فى وسط البحر... فنجا مع بعض القوم على خشبة من خشب المركب ، ووقعوا فى مكان لا يدرى أى مكان هو ، فأقاموا فيه أياماً لايجدون قوتاً حتى أشرفوا على الموت ، فقال بعضهم لبعض: « تعالوا نعاهد الله على أنفسنا أن ندع له شيئاً فلعله يرحمنا ويخلصنا

من هذه الشدة ، فقال بعضهم : « أصوم فى كل عام شهرين » ،
وقال البعض : « أصلى فى كل ساعة ركعتين » ، وهكذا ... إلى أن
قال كل منهم شيئاً والرجل طالب الزوجة ساكت فقالوا له :
« قل شيئاً » ! ... فحار ولم يجىء على لسانه إلا قوله : « لا آكل لحم
فيل أبداً » ! ... فصاحوا به : « الهزل فى مثل هذا الحال » ؟ ! ...
فأجابهم : « والله ماتعمدت الهزل ، ولكنى منذ بدأتم وأنا أعرض
على نفسى شيئاً أدعه لله فلا يخطر على بالى غير الذى لفظت به » ...
ومرت اللحظات بهم ، فقال أحدهم : « لم لا نطوف فى هذه الأرض
متفرقين بحثاً عن القوت ، فمن وجد شيئاً أنذر به الباقين ، والموعد
هذه الشجرة » ؟ ... فتفرقوا فى الطرق ، وإذا أحدهم يرجع بعد
قليل بولد فيل صغير ، فلوح بعضهم لبعض فاجتمعوا ... وأخذوا
الفيل الصغير واحتالوا فيه حتى شووه وقعدوا يأكلون ، وقالوا
للباحث عن الزوجة : « تقدم وكل معنا » ، فقال : « أنسيتم أنى
منذ ساعة تركته لله ؟ ... إنى لن أرجع فى شىء تركته لله أبداً ...
ولو كان فى ذلك موتى جوعا » ، وأكل أصحابه بدونه ، وأقبل
الليل ، فتفرقوا إلى مواضعهم التى كانوا فيها يبيتون... وأوى هو
إلى أصل شجرة كان يبيت عندها ، فلم يكن إلا لحظة ، وإذا بفيل
عظيم قد أقبل وهو ينعر والخلاء كله يدك بنعيره ، وهو يطلب

القوم... فقال بعضهم : « قد حضر الأجل » ، فاستسلموا وتشهدوا وأخذوا فى الاستغفار والتسبيح ، وطرحوا أنفسهم على وجوههم ، فجعل الفيل يقصد واحداً واحداً ، فيشمه من أول جسده إلى آخره فإذا لم يبق فيه موضع إلا شمه ، شال احدى قوائمه فوضعها عليه ففسخه ثم تركه كالعجين ، وقصد آخر ففعل به مثل ما فعـــل بالأول ... إلى أن لم يبق من القوم غير الباحث عن الزوجة ، وهو جالس منتصب يشاهد ما يجرى ويستغفر ويسبح ويقول : قاتل الله ذلك الذى نصحنى بهذه النصيحة الشؤم ، وأخرجنى من بلادى فى طلب... » ولم يتم كلامه ... فإن الفيل لم يمهله وقصده للفور ... فارتمى الرجل على ظهره مستقبلا الموت ، وجعل الفيل يشمه كما شم أصحابه من قبل ، ثم أعاد شمه مرتين أو أكثر ، ولم يكن فعل ذلك بأحد من الآخرين ، وروح الرجـل فى خلال ذلك تكاد تخرج فزعا... ثم لف خرطومه عليه فشاله فى الهواء ، فظنه الرجل يريد قتله بقتلة أخرى ، فجهر بالاستغفار ولـكن الفيـــل رفعه بخرطومه وأجلسه فوق ظهره ، وانطلق به يهرول تارة ، ويتهادى أخرى ... إلى أن طلع الفجر واشتد ضوؤه ، فإذا الفيل قد أنزله عن ظهره ، وتركه على الأرض أمام باب قصر فخم ... ورجع إلى الطريق التى جاء منها ... ولبث الرجل فى موضعه لا يعقل ولا يعى

من الفزع والجزع ... ولم يشب إلى رشده إلا وهو داخل القصر ... فانتبه إلى نفسه ... فإذا هو فى فراش وثير وثياب جديدة وإلى جواره فتاة كالبدر هى ابنة صاحب الدار ... طفقت تعنى به وهو ينظر إليها ويهمس قائلا : « أمن الموت إلى الحياة ... وأى حياة ! ... إنها هى ... هى ! ... » نعم ... كانت هى ضالته التى تجشم من أجلها السفر والبحر والخطر ... فقد تزوجها بعد ذلك وكانت نعم الزوجة والخدين والشريك ...

وانتهى المهندس من مطالعة هذه القصة القديمة ، وهو يقول لنفسه : أم شلبي ... هذا الفيل الآدمى ... من يدرى ... لعلها هى الأخرى تحملنى غداً إلى تلك الأسرة التى أجد فى فتاتها ضالتى ! ...

وطلع الصبح ... وانتصف النهار ... وجاءت الخاطبة تحمل فى ملاءتها ، صورة فى إطار ، أمسك بها المهندس متلهفا وتفرس فيها ملياً ... ثم طفق يقول كالخاطب لنفسه : « نعم ... لا بأس ... حقيقة إنى أردت امرأتى هكذا ! ... » وسحبت أم شلبي الصورة من يده برفق ، قائلة له إنها ستقع فى الحرج إذا تفقدوا الصورة قبل ردها ... وأن عليها الآن أن تعود بها فوراً لتضعها فى مكانها ... وأن ما يجب عليه عمله منذ الساعة وقد راقته الفتاة أن يمضى قدماً إلى أهلها فيعرض طلبه ، قبل أن يرتبطوا بالخاطب الآخر ، وإذا شاء فإنها

تدبر له موعد المقابلة مع أبيها فى أقرب وقت... فقال لها : «نعم ... أسرعى ... الخير فيما اختاره الله ... »

لم يمض يوم حتى عادت أم شلبى تلهث وتدعوه إلى زيارة والد العروس ، عصر ذلك اليوم ، وتوصيه أن يكون حريصاً على الذهاب فى الموعد المحدد بغير إبطاء ولا تأخير ، فإن أهل الفتاة رفضوا بادىء الأمر الكلام فى شأن أى خاطب جديد فهم قد رضوا عن الخاطب الأول ، ولم يروا مبرراً لترك هذا الباب مفتوحاً بعد ذلك ، ولكن الخاطبة بذلت أعظم الجهد فى اقناعهم بمقابلة هذا المهندس الكفء ، فمن يعلم أين النصيب؟... وما ضرهم أن يأذنوا له فى زيارة قصيرة ، لقد احتالت وصنعت ما استطاعت لتفتح له ذلك الطريق المغلق ، فلم يبق إلا أن يصنع هو ما يستطيع ليقنع والد البنت ، وهو شيخ وقور متقاعد من رجال الجيش ، دقيق فى نظامه ، صارم فى أحكامه ، فقال المهندس للخاطبة : « لاتخافى ... فى الساعة الخامسة بالضبط أكون هناك ! ... » وقد بر بوعدة ، فما أزفت الرابعة والنصف حتى كان قد تهيأ وتجهز وارتدى خير ثيابه ، ووقف أمام المرآة يضع منديله الحريرى فى جيب الصدر ، وينظر إليه وقد تدلى وتهدل ، فرأى أن يخفى بعضه ولا يبرز غير طرفه ، اعتدالا فى إدعاء الأناقة ، واقتصاداً فى إبداء الخيلاء،

ورضى عن مظهره ... فنزل إلى الطريق قاصداً بيت العروس ، وسار فى الشارع وكل شيء فيه مبتهج فرح ، وقد غمر الاطمئنان قلبه فبدد حيرته ، لقد انتقى له القدر شريكته ، فلم يبق إلا أن يتقبلها منه شاكراً ، آه للإنسان ! . ما أشد عجزه !... هنالك مسائل لا يرتاح إلى حلها إلا إذا سقط عليه المفتاح من السماء !... وهنالك مواقف يواجه فيها الانسان مفرق طرق ، فلا يسعفه إلا دفعة فى ظهره من يد القدر نحو إحداها ... كانت مثل هذه الخواطر تجول فى ذهن المهندس وهو يواجه مفرق طرق « ميدان سليما باشا » وإذا هو فجأة يحس دفعة فى ظهره شديدة قاصمة قد طرحته على الأرض ، وإذا شيء كالعجلات يمر فوق جسمه... وكان هذا مبلغ وعيه لكل ما حدث ...

ليس يدرى على التحقيق كم من الزمن مضى عليه وهو فى إغمائه ، لكنه عندما تنبه وجد نفسه على فراش وثير فى سرير مستشفى ، وجسمه كله مغلف بالأربطة الصحية وقد سمع من يهمس حوله قائلا : « لا تتحرك » فحول بصره جهة الصوت ، فرأى طبيباً وممرضاً وممرضة فى ثيابهم البيضاء ، وقد علم منهم أنه قد أجريت له عملية « جراحية » وأنه قد كسر له ضلع ، وأنه فى هذا المستشفى منذ أيام ، وأن حالته كانت خطرة بادىء الأمر ، ولكن الخطر

زال عنه الآن ... وأنه سائر فى طريق الشفاء ... وأراد المريض أن يتكلم وأن يستفسر فمنعه الطبيب من بذل أى حركة أو جهد... ولم يسمح له إلا بالرد المقتضب على أسـئلة رجال الضبط الذين جاءوا لسماع أقواله فى الحادث ، وقد أجابهم بأنه لم ير شيئاً ... لا السـيارة التى صدمته ولا لونها ولا سائقها ... فختموا محضر تحقيقهم وانصرفوا عنه ، وتأمل هو حاله لحظة واكتفى بالهمس فى أعماق نفسه :

ضلع مكسور !... هذا كل ما وصلت إليه ... أنا الآن كسر بحق ... دون أن أظفر مع ذلك بالتى تكملنى !...

ثم ذكر آخر يوم كان فيه صحيحاً ... وكان سائراً إلى بيت العروس ... ترى ماذا تم فى هذا الأمر ؟... أترى الفتاة مابرحت من نصيبه؟...أم أن الخاطب الأول قد سبقه إليها ، بينما هو طريح ، كالجواد الذى سقط فى ميدان السباق ؟... كيف السبيل إلى معرفة النتيجة ؟ ... لو استطاع على الأقل أن يبعث فى طلب « أم شلبي» ليعلم منها .. ولكن ما الحيلة فى هذا الطبيب الذى يمنعه من الكلام والحركة ؟... فليصبر يوماً آخر أو يومين... يا لسوء حظه إذا كان قد فقدها بسبب هذا الحادث ! ... الويل للجانى الذى صدمه عند ذاك ... إنه لن يغتفر له أبداً ... لا كسر ضلعه ، بل تلك الطامة

الأخرى ، ضياع نصفه الآخر بعد أن عثر عليه ...

وحانت منه التفاتة إلى ما حوله ، فوجد ما أدهشه : باقات من الورد والأزهار الغالية فى الآنيات ، وقارورات فاخرات من ماء « الكولونيا » ، وكتب مجلدة مذهبة لقتل الوقت ، وصناديق ثمينة مفعمة بالحلوى ومملوءة بالسجاير ... وكل ما يمكن أن يهدى إلى مريض معزز مدلل ... عجباً ! ... من هذا الذى يهتم بترفه كل هذا الاهتمام ، ويعنى بشخصه كل هذه العناية ؟! ... وسأل طبيبه بإيماءة من عينه عمن أحضر كل هذه الهدايا ... فلم يزد الطبيب على أن قال بسرعة وبلهجة من يقول شيئاً معروفا للجميع :

— الست ...

والتفت الطبيب إلى مرءوسيه يصدر إليهم الأوامر الأخيرة قبل انصرافه ... وغادر الجميع الحجرة من فورهم ، تاركين المريض مستغرقاً فى الدهشة : « الست » ! ... ومن هى هذه «الست» ؟! ... وعادت الممرضة وفى يدها أنبوبة زجاجية وحقنة ، ملأتهــــا ثم وخزت المريض بإبرتها ... فانتظر حتى فرغت من عملها ، فسألها أن تحدثه مليلا عن تلك « الست » ... وكانت الممرضة ثرثارة ... فتدفقت تصفها بأنها أجمل وأكرم سيدة رأتها ...

وطفقت تخبر المهندس المريض بطائفة من التفاصيل لم تزده

إلا عجباً واستغراباً ، فهذه «الست» الحسناء تأتى كل يوم لتسأل عن صحته ... وهى فى كل مرة تأتى بالأزهار الجميلة ، وتضع النقود فى أيدى ممرضيه بسخاء وترجوهم أن يخصوه بكل عنايتهم ، وأنها كانت فى ساعات الخطر الأولى تسأل عن تطورات حالته فى جوف الليل بالتليفون عدة مرات .. وأنها حضرت « العملية الجراحية » منتظرة فى حجرة مجاورة كى تطمئن على عواقبها ... وأنها أصرت على استدعاء «كونسولتو» من الأطباء قبل إجرائها لتزداد اطمئناناً .. وأنها دفعت نفقات كل ذلك من جيبها بدون تردد ... بل الأعجب أن وجوده فى هذا المستشفى فى هذه الحجرة من الدرجة الأولى الممتازة بكل ما يلزم له من علاج وغذاء ورفاهية وترف هى التى تتولى نفقاته ، وأن المال يسيل من بين أصابعها كالماء فى هذا المستشفى من أجله ... ولا هم لها ولا تفكير إلا فى شىء واحد : « إنقاذ حياته بأى ثمن » ... تلك هى كلمتها التى ترددها كل يوم وكلما جاءت ... ولكل من تقابل من أطباء وممرضين ... وختمت الممرضة حديثها قائلة ببساطة :

— طبعاً ... زوجتك ... طبيعى أنها تهتم بحالتك وتضحى بكل شىء ! ... ان شاء الله أبشرها بالأخبار السارة عن قريب ! ...

وخرجت من الحجرة مسرعة ، وتركته يقول كالمخبول :

— زوجتى !؟ ...

وجعل يعالج حل هذا اللغز ، إلى أن اهتدى إلى رأى شبه معقول :

لعل هذه « الست » التى يحسبونها هنا زوجته ليست فى حقيقة الأمر سوى تلك الفتاة « العروس » التى كان ذاهباً لخطبتها ... ولعلها علمت بالحادث ، وأثر فى نفسها ما وقع له وهو فى طريقه إليها ... فحملها ذلك التأثر الشديد لهذا الاخلاص كله على العناية به ... إذا كان ذلك حقاً فهى إذن الشريكة المنشودة . . . نعم ... ما أكرم نفسها! ... وما أسعده بمثلها ! ... ثم لماذا تتحمل هى نفقات علاجه ؟... أتراها اعتبرت نفسها زوجته منذ الآن ، لمجرد أنه كان ذاهباً يطلب يدها ؟... إذا كان هذا ما وقع فى نفسها ، فإنه ليقرها عليه ... فهو أيضاً يعدها زوجته من الآن ... بل منذ اللحظة التى سقط فيها تحت السيارة من أجلها ... يا لها من زوجة عزيزة .. إن رسمها فى رأسه الساعة مشوش مختلط ... ولكنه ذكر ذلك يذكر بعض ملامحها شاهدها فى الصورة ذات الإطار ... لا بد له على أى حال أن يراها سريعاً ، ليشكرها على الأقل ... وانتظر حتى جاءت الممرضة فقال لها :

— أريد أن أرى ... زوجتى ...

فأجابته الممرضة بأنها لم تحضر بعد ، ووعدته بأن تدخلها عليه توا عند حضورها .. ولبث المريض يعد فى انتظارها الدقائق ثم الساعات ، ثم جاءه الليل ، ثم مر يوم وثلاثة وأربعة ... دون أن يسمع من الممرضة سوى ألفاظ الدهشة والاستغراب ... فهى أيضاً تعجب لاختفاء هذه السيدة الآن ... بعد أن كانت تجىء المستشفى فى اليوم مرتين ... ووقع المهندس لا فى الهم والغم وحدهما بل فى الحيرة أيضاً والحرج ... بماذ يعلل للممرضة وللآخرين هذا التصرف العجيب من زوجته المزعومة ؟.. فآثر الصمت أمامهم والاقلاع عن ذكرها ... ولكنه ظل الأيام يحاول عبثاً أن يكشف لنفسه حقيقة هذا السر ... إلى أن بدرت ذات يوم من الطبيب بادرة أنارت قليلا هذا الأمر ... فقد قال له وهو يفحص ضلعه المكسور :

ــ حالتك الآن على ما يرام ... تستطيع الآن أن تضطجع على وسادة خلف ظهرك ، وأن تتكلم كما تشاء ... وأن تقرأ هذه الكتب والصحف والمجلات التى ترسلها لك الست ......

فصاح المريض كالغريق الذى وجد خشبة :

ــ الست ؟... أين الست ؟...

فقال الطبيب باسماً :

— إنها الآن مطمئنة غاية الاطمئنان بعد أن أكدتُ لها منذ أسبوع زوال كل خطر ...

— ولكني ... أعني ... هل حضرت ؟ ...

— لا ... لقد قالت لي في آخر مرة إنها لم تعد ترى ضرورة للحضور ، ما دام الخطر قد زال ... وإنها تكتفي الآن بالسؤال عن الحالة بالتليفون مرة كل يومين أو ثلاثة ...

— هل أستطيع أن أكلف أحداً بطلبها بالتليفون ؟ ...

— بالتأكيد ... اعط رقم التليفون للممرضة وهي تقوم بذلك في الحال إذا شئت ...

— رقم تليفون « الست » معروف هنا طبعاً ...

— لا أظن ... إنها هي التي تطلبنا دائماً ... ومع ذلك ألا تعرف أنت الرقم ؟ ...

— آه ... طبعاً .. طبعاً ...

وضحك ضحكة يخفي بها ورطته ... وانصرف الطبيب ، وتركه يتخبط في ظلام أكثف مما كان فيه ... من هذه السيدة التي تعطف عليه كل هذا العطف وهو في الخطر ، فإذا انقشعت غمته وتحسنت حالته ، انصرفت عنه في غير اكتراث كأنها لا تعرفه ؟! ... ثم كيف يتصل بها الآن والمسالك دونها موصدة ؟ ... ونادى الممرضة

ورجا منها أن تبحث فى إدارة المستشفى وفى كل مكان عن عنوان « الست » أو رقم تليفونها ... موهما إياها أن زوجته هذه تتعمد إخفاء مكانها عنه وتتكلف هذا التصرف معه ، لأسباب خاصة ، لكن الممرضة لم تعثر لهذه السيدة على عنوان معروف ولا على رقم تليفون ... وكل ما يعلمونه عنها فى المستشفى أنها هى التى تحضر وهى التى تستفسر دون أن تترك خلفها أثراً ... ولم يجد المريض آخر الأمر غير وسيلة واحدة ... ما كاد يهتدى إليها حتى صاح فرحا كمن وجد الفرج ... والتفت إلى الممرضة قائلا :

— اسمعى !... أرجوك...إذا سألت عنى « الست » بالتليفون فى المرة القادمة ، فأخبريها أنه قد حدثت لى نكسة ، وأنى لن أعيش أكثر من ساعتين ! ...

فترددت الممرضة ... فأقنعها بورقة مالية دسها فى كفها ... فقبلت المجازفة بهذه الأكذوبة لوقت محدود ... ومضى يومان ... وإذا الممرضة تدخل على المهندس مهرولة لاهثة وهى تقول :

— تكلمت ...

— صحيح ؟... تكلمت ؟...

قالها وقد كاد قلبه يثب من جوفه ... فأكدت له الممرضة أن « الست » تكلمت الساعة بالتليفون لتستفسر ، فأجابتها بالرد المتفق

عليه ، فذعرت وألقت بالسماعة ، وهى قادمة بعد دقيقتين ... فلم يدر المريض ما يصنع من الفرح ... ومد يده على غير وعى منه يلتمس زجاجة عطر الكالونيا ليتطيب...وهو يوصى الممرضة أن تدخلها عليه للفور ، وأن لاتنسى أنه يحتضر... وخرجت الممرضة تستقبل القادمة ...ولم يمض قليل حتى سمع المريض صوت المرأتين يقترب ... فأغلق عينيه نصف إغلاق ، واستلق بلا حراك ومثل دور من يموت .. ودخلت « زوجته » المزعومة وتسمرت بالعتبة تنظر إليه شاحبة الوجه ... فكاد ممثل الموت يموت حقاً ... من هذه المرأة ؟... إنها ليست صاحبة الصورة التى فى الإطار !... هو الذى وطن النفس وأعد الذهن لرؤية امرأة يعرفها ... أو يعرف رسمها على الأقل ؟ ... ها هو ذا أمام امرأة جديدة لم يرها قط فى حياته ، ولا يدرى عنها شيئاً ... وانهار كل ما كان قد بناه فى لحظة ... فليست هذه المرأة بالعروس التى كان ذاهباً لخطبتها ... وليست هذه العناية وهذا الاهتمام وليد تلك الأسباب التى كان قد رتبها واستنبطها واستنتجها ... هذه امرأة غريبة عليه وعلى ذهنه وفكره ... لم يرها من غير شك فى الماضى ، ولم يصادفها فى حقيقة أو خيال ... فمن تكون ؟... ومن أين طلعت له ؟ ... وما سر عنايتها به ولهفتها عليه.. وقلقها فى ساعات أزماته . . .

وتكلفها جميع نفقاته ؟... هذا هو اللغز الذى فاق جميع ماعداه... ولكن هـذه المرأة التى لم يعرفها ولم يرها ... ما أجملها !... إنه تخيل فعلا يوماً ما ، نوعا من الجمـال تمناه فى امرأته ... ولكنه لم يستطع تخيل حسن كهذا... إنه لكثير عليه هذا الجمال ثم ما أروع وجهها فى هذا الشحوب ... لقد شحب وجهها هكذا حزناً عليه ... أهو فى يقظة حقاً ؟... ثم ما هـذا الذى يرى ... يا للعجب !... إنها دمعة فضية تترقرق فى عينيها الواسعتين كأنها قطرة ندى ... ولم تتحمل الحسناء ألمها ــ فيما يبدو ــ أكثر من ذلك ... فاندفعت خارجة من الحجرة ، وهى تمسح دمعتها بأناملها القرمزية الأصداف، والممرضة فى أثرها ... ولم يبد المريض حركة ولم يلفظ همسة فقد أذهله ما رأى عن كل شىء ... ولم يثب إلى رشده ، وتستيقظ له إرادة ، إلا بعد أن عادت إليه الممرضة وحـدها راجية ملحة فى الرجاء أن يكف عن هذه الأكذوبة ، وأن يسمح لهـا أن تخبر الحسناء بالحقيقة ، قبل أن تتحرج الأمور ، ويبلغ إدارة المستشفى الأمر ، فتتعرض هى للمؤاخـذة ، ذلك أن « الست » تصر على استشارة الأطباء ، وبذل كل عطاء لإنقاذه من الموت ، ولم تنتظر الممرضة رأيه أو جوابه ... وأقبلت عليه تعينه على الاستواء قليلا ... وتضع الوسادة خلف ظهره ، وجذبت احدى المجلات

المصورة ودفعت بها إليه ، وأعلنته أنها ذاهبة تخبر « الست » بالحقيقة ، وتعود بها لتراه وهو فى حالته الحقيقية ... وخرجت عنه وهو مضطجع كالطفل الذى لا إرادة له ولا عزم ... المتقبل كل ما يجرى له ويفرض عليه ... وأخذ يعبث بصفحات المجلة المصورة بعين زائغة وفكر شارد ... وإذا بصره على الرغم منه يقع على صورة يعرفها ... عجباً ! ... إنها صورة للعروس التى رأى رسمها فى الإطار ... نعم ... هى بعينها فى ثياب العرس البيضاء وإلى جانبها شاب فى ثياب السهرة « الفراك » ، وتحت الصورة عبارة « قران بهيج » ... لقد زفت إذن إلى خاطبها الأول ... حسناً فعلت ، إنه لا يأسف الآن عليها كثيراً ... وأرسل بصره إلى الباب نافذ الصبر ... معلق الأنفاس ... وإذا الممرضة تدخل وهى تجذب الحسناء جذباً رقيقاً إلى داخل الحجرة ، وقدمت إليها مقعداً بجوار السرير ، وانصرفت فى الحال ... ومرّ كل ذلك مراً خاطفاً ، فلم يشعر المهندس بالحسناء إلا وهما منفردان وجها لوجه ، ولم يكن من اليسير أن يجد أحدهما الكلام الذى يبدأ به ... فوقعا أول الأمر فى صمت عميق محرج ... قطعته الجميلة قائلة ، وكأنما تتنفس الصعداء :

— أف ! ... الحمد لله على أنك بخير ! ... لقد كاد يغمى علىّ

الساعة عندما حسبتك تموت ! ...

فرَنَا إليها وإلى فمها وهى تنطق هـــذه الكلمات ، وكأنه لا يصدق أن هذا القول موجه إليه ... ثم تمالك قليلا وقال لها :

ـــ حياتى شىء مهم عندك ؟ ...

ـــ جداً ...

ـــ لا يوجد غير تعليل واحد لكل هـذا ، إنى مت حقيقة وانتقلت إلى جنة الخلد ، وما أنت إلا حورية مكلفة بملاطفتى ... ولكن .. أين الشجر والثمر والكوثر ... ولماذا هـــذا السرير والممرضة والمستشفى !! ...

ـــ لا ... أنت من حسن الحظ حى ... لأنك لو كنت مت ودخلت جنة الخلد ، كنت أنا دخلت السجن ...

ـــ السجن ؟... وما المناسبة ؟!...

ـــ آن الأوان أن أعترف لك يا سيدى بجريمتى ... أنا التى صدمتك بسيارتى...وإنى بالطبع متأسفة جداً...ولكنه القدر... أقوى منا ومن إرادتنا وتدبيرنا ... كنت مسرعة وهذا خطأ منى ولاشك ... ولكنى كنت مدفوعة برغبتى فى شراء ثوب حريرى رأيته فى الصباح ، وخفت أن تسبقنى إلى شرائه أخرى...وعندما مرت العجلات على جسدك...لم أقف ومضيت فى الســـير بعين

السرعة ... لا عن قسوة منى ونقص فى المروءة ... بل عن خوف شديد استحوذ علىّ ... لقد هربت من جسدك الملقى على الأرض كمن يهرب من شبح ... وعدت تواً إلى بيتنا غائبة العقل .. ورأتنى والدتى فهالها اضطرابى ، وقصصت عليها ما حدث ، فنصحتنى أن أخبر والدى بكل شىء ... وهو من رجال القضاء ... فلما سمع والدى القصة حار هو الآخر فيما ينبغى عمله .. فإن التبليغ عن هذا الحادث معناه التعرض للحكم إذا مات المصاب ، كما قال لى ، وإذا لم نبلغ فإننا نتحمل تقريع الضمير طول حياتنا ، وإن كرامته كقاض يمنعه من أن ينصح أحداً ولو كان ابنته بالهرب من العدالة .. وإن حنانه كأب يمنعه كذلك من أن يدفع بابنته الوحيدة إلى السجن ... وانتهى به التفكير إلى أن ترك لى حرية التصرف ... بعد أن أفهمنى كل النتائج المحتملة لهـذا الفعـل ... وجعل يعنفنى على جنونى فى سرعة القيادة ... ونصحنى أخيراً أن أتتبع حال المصاب على الأقل وأن أعمل على علاجه وانقاذه ... فإنه إذا شفى ان يقع علىّ من العقاب أكثر من غرامة مالية ولهذا بادرت أسأل أقسام البوليس عن المصاب فى حادث السيارة عصر ذلك اليوم فى ميدان سليمان باشا ... إلى أن اهتديت إليك ...

وأصغى المهندس إلى حديثها ، وكأنه يهبط رويداً رويدا من

السحاب حتى لاصق التراب ... وما فرغت روايتها ... حتى نظر إليها قائلا :

— يا لك من مجرمة أثيمة !... كسرت ضلعى ، وأضعت خطيبتى ، وبددت أحلامى ! ... وكل هذا لن تعاقبى عليه بأكثر من غرامة مالية !...

— لأنك شفيت والحمد لله ! ...

— أنا شفيت !... وما قيمة شفائى ؟... إن موتى الآن خير من حياتى ... أكل هذا العطف الذى نلته منك ... وهذه الدمعة التى سقطت من عينيك ، وهذا الشحوب الذى بدا عليك لم يكن من أجلى ولا خوفا علىّ ، بل خوفا على نفسك من الحبس ؟! ...

اسمعى أيتها الآنسة ... أو الست ... أو الزوجة المزعومة ...

— الزوجة ؟ ...

— طبعاً ... وماذا تريدين أن يكون ظنهم هنا بسيدة مثلك تعنى هذه العناية برجل مثلى ؟... لقد خطر فى بالهم بالضرورة أنك زوجتى ، ولم يخطر فى بالهم أنك قاتلتى !...

— لا تقل إنى قاتلتك ... فها أنت ذا الآن فى صحة جيدة ...

— كم كنت أتمنى أن أموت لتدخلى أنت الحبس ...

— إلى هذا الحد تبغضنى ؟ ...

ـــ هل أبلغت الحكومة أنك أنت الجانية ؟...

ـــ لم أبلغ بعد ... لقد رأيت أن أنتظر حتى تشفى ...

ـــ وإذا كنت مت ؟...

ـــ كنت ذهبت وقدمت نفسى للبوليس ...

ـــ أأنت واثقة أن القضاء كان يحكم بحبسك فى حالة وفاتى من الحادث ؟ ...

ـــ كان ذلك مرجحاً لأنى من أرباب السوابق ...

ـــ أنت ؟... من أرباب السوابق ؟!...

ـــ نعم .. فى حوادث السيارات... سبق لى أن صدمت حماراً محملا بالحطب فى طريق عزبتنا فى صيف العام الماضى ، ومنذ ستة أشهر صدمت حماراً آخر يحمل قصباً فى سكة الهرم ...

ـــ حضرتك إخصائية فى صدم الحمير ؟!...

فنظرت إليه وهو مغلف فى أربطته الصحية ... وضحكت ولم يفطن هو إلى « النكتة » ومضى يقول :

ـــ أيتها الجانية ... أنا بصفتى المجنى عليه ، لابد أن يسمع رأيى فى جريمتك ... هل تريدين حكمى ، أو حكم المحكمة ؟...

ـــ حكمـــك ...

ـــ حكمت عليك بالحبس ...

— تريد حبسى ؟ ! ...

— فى أحضان الزوجية ...

فنظرت إليـــه وابتسمت ابتسامة المحكوم عليه الذى رضى بالحكم ولن يستأنفه أو يناقض فيه ...

* * *

مضى عام على زواجهما ، فأدرك المهندس أن « القدر » حقاً قد عرف كيف يهديه إلى «طبقه» وشطره ونصفه وزوجته المثلى ... وقد آمن أن للقدر من الوسائل أحيانا مالا يخطر على بال البشر ... وهل كان مثله يتصور أنه سيلتقى شريكته يوما بهذه الطريقة ؟ ! ... إن كلمة « النصيب » التى يذكرها الناس دائماً فى بساطة ليست إلا مظهراً من مظاهر فن « القـــدر » العجيب فى تدبير مصائر الآدميين ...

واحتفلا فى المساء بمرور العام على ذلك الزواج ، فهمس فى أذن زوجته قائلا :

— كان لا بد لحواء أن تأخذ من آدم ضلعاً حتى توجد ، وكان لا بد لك من أن تكسرى لى ضلعاً حتى أجدك ! ...

كليوباترة وماك

من أسرار الحرب الأخيرة التى لم يكشف بعد عنها النقاب ما أرويه الآن.. وما من صحيفة فى العالم نشرت هذه القصة العربية ، التى قد تصدم منطق الإنسان فى القرن العشرين... ولكن هذا لا يمنع من أنها وقعت بالفعل... وأرجو أن لا يسائلنى سائل عن مصدر علمى بها ... فهذا ما أقسمت أن لا أبوح به لأحد ..

كان ذلك فى عام ١٩٤٤ ، فى جزيرة ما بالمحيط الباسيفيكى اتخذها الجنرال « ماك آرثر » مقراً لقيادته فى حربه ضد اليابان بعد أن اضطر إلى الجلاء عن الفلبين ...

كان المساء جميلا ...والشفق مازال يدمى على صفحة سماء بيضاء كرداء العروس ، والنسيم يهب رقيقاً من البحر الهادىء النائم ...

وكان « ماك آرثر » جالساً فى شرفة مقره بمفرده ، وقد غرق فى مقعد من القماش كمقاعد الشواطىء ، وأرسل رأسه إلى الوراء على المسند وراح فى شبه إغفاءة ... تحت وقر التعب والاجهاد ، وثقل الأعباء والتبعات ...

لم ينم طويلا ... فقد استيقظ فجأة على صوت مجاديف تمس الماء كما يمس المرود الجفن ، وموسيقى تحملها الريح ، وعطور تتضوع

فى الهواء ... ففتح عينيه ، فإذا هو أمام منظر عجيب : سفينة من سفن العصور القديمة ، تتهادى فوق الأمواج مقتربة ... مؤخرتها من الذهب ، وشراعها من الأرجوان ، ومجاديفها من الفضة، تتحرك على نغم المزامير . وفى مقصورتها امرأة مستلقية على الحرير كأنها آلهة ، يحرق بين يديها بخور وينتشر عبير ، يلعب بالرؤوس ، ويسحر النفوس ...

نزلت تلك المرأة من السفينة ، ومشت وكأنها تخطر فى الهواء ... نحو مركز القيادة ، وهى تقول :

— « مارك أنطونى » ! ...

ففرك الجنرال الأمريكى عينيه وهو يقول :

— أنا « ماك أرثر » ! ...

— نعم ... أقصد « ماك أرثر » .. إليك جئت ، وأنت الذى أريد ...

— من أنت ؟ ...

— أنا كليوباترا ...

ففحصها القائد بنظره ملياً ... وتأمل ثيابها ودمقسها ودمالجها ولآلئها .. ثم التفت إلى سفينتها العجيبة ، وهز رأسه باسماً وقال :

— فهمت ، فهمت ... إنما الذى أعجب له هو : كيف استطاعت

هوليوود أن تعمل فى هذه المنطقة الحربية بدون علمى ؟... وكيف حصلت على إذن فى إرتياد هـذه المياه الممنوعة لإخراج الأفلام التاريخية ؟ ... وما هى السلطات المختصة التى يمكن أن تتحمل هذه المسئولية دون الإلتجاء إلى رأيى ؟!... هذه مسألة خطيرة ياسيدتى ، لا يحسن الأغضاء عنها ...

ونهض ، وعلى محياه جد وصرامة ... وأراد دخول مكتبه ليتحرى الأمر فاعترضته الزائرة العظيمة ، ووقفت بجلالها الملكى ، وقالت بصوتها الملائكى :

— قلت لك أنا كليوباترا ، ملكة مصر ... جئت إليه من العالم الآخر ... ولعلها أول مرة يحدث فيها ذلك ، منذ عرف الناس الحياة وعرفوا الموت ... إن عصركم اليوم عصر تقع فيه أعاجيب ، ولكن الأعجوبة الكبرى هى تمكنى من العود إلى الدنيا ... كيف تمكنت ؟... هذا ما لا شأن لك ولا لى به ... وأنا لم أحضر لأطلعك على أسرار الموت والحياة ... ولكنى أريد أن تصدقنى ... فلأقل لك إذن ببساطة كيف تم هـــذا ، بطريقتكم ولغتكم التى تفهمونها : إننا بعد موتنا نتلاشى روحاً وجسداً كذرات فى الفضاء ... على أن المتعذر دائماً هو جمع هذه الذرات ، من الكون ، مرة أخرى فى عين الجسد وعين الروح ... لقد استطعتم بجهاز

الراديو أن تجمعوا من الفضاء أصواتاً وتنقلوا صوراً ... ولكن أين الموتى ذلك الجهاز الذى يجمع ذراتهم المتناثرة ، فى كيانهم القديم وصورهم الغابرة ؟... لابد أن توجد قوة هائلة تجذب هذه الذرات وتجمعها ... لقد حدثت هذه المعجزة فيما يختص بى ... لقد كنت أنت هذا الجهاز ، أو هذه القوة التى جذبتنى ، بدون أن تشعر أنت أو تعى ، إنك لا تدرك أى شبه بينك وبين حبيبى السابق « مارك أنطونى » ! ...

قالت ذلك ، و « ماك أرثر » يصغى إليها مشدوها ... لكأن إرادته قد فارقته ... يدرك هذا من قرأ «بلوتارك» المؤرخ اليونانى حين وصف كليوباترا ... إنها ، على حد قوله ، لم تكن فى الجمال بالغة ما لم يبلغه غيرها من الجميلات ، ملاحة وجهها لم تكن وحدها مبعث فتنتها التاريخية ، إنما هو حديثها الذى كان ينفذ فى القلوب كالشوكة ... كان صوتها هو العـــذوبة ، ولسانها قيثارة متعددة الأوتار ... تعالجهـــا برشاقة وتمسها بلباقة ، فى مختلف اللغات واللهجات... إن مقاومة سحر حديث كليوباترا كان هو المستحيل...

وهمس القائد الأمريكى كالمخاطب نفسه :

— مارك أنطونى ! ...

— نعم ... ما أعجب الشبه بينك وبينه ! ... فى وجهه وأنفه

وقوامه ... ومشيته ! ... بل ما أشبه دولتك بدولته ... لقد كان الرومان فاتحى العالم بالسيف ، واليوم الأمريكان هم فاتحو العالم بالدولار ... كان للرومان مجلس شيوخ و «قيصر» . وللأمريكان مجلس شيوخ و «روزفلت» ...

* * *

من اللغو أن نطيل ... فمن البديهى أن نقول : إن «ماك أرثر» وقع فى حب «كليوباترا» .. وهل دنا منها أحد دون أن يسقط فى أتون غرامها ؟ ... ومنذ ذلك المساء وهما لا يفترقان ... كانت معه كما كانت مع «مارك أنطونى» فى أول حبهما ... لقد قيل إنها والقائد الرومانى كانا متلازمين الليل والنهار . . . كانا معاً يهيمان فى الطرقات أحياناً يمرحان ويلهوان ... هى متخفية فى زى وصيفة وهو فى زى وصيف ... أما اليوم فإنها تلازم القائد الأمريكى فى زى «ضابطة» من المجندات ، وقد ألحقت بمكتبه ... وهو وضع طبيعى ... وهل يثير التفات أحد أن يكون للجنرال الأمريكى «سكرتيرة» مجندة فى ردائها العسكرى ؟ ...

لم يكن شىء يعكر صفو حبهما غير شبح ... هو دائماً عين الشبح : الزوجة ...

فيما مضى كانت هى «فولفيا» زوجة «مارك أنطونى» التى

هجرها فى ايطاليا . . . واليوم هى مسز « ماك أرثر » التى تركها فى أمريكا ...

يا له حقاً من تشابه عجيب ! ...

كلاهما زوج وأب ، بعيد عن بلاده . . . وكلاهما يحزن كليوباترا ويزعجها كلما فكر فى العودة إلى امرأته وأولاده ...

ولم تلبث مخاوفها أن تحققت ... فها هى ذى المعركة الانتخابية تقوم فى أمريكا لاختيار « الرئيس » ورشح « روزفلت » للمرة الرابعة ... ولكن نفراً قاموا من جهة أخرى يرشحون أمامه « ماك أرثر » ...

هنا نهضت « كليوباترا » تدرأ عن حبها الخطر ، فاستعانت بقوة سحرها ونفاذ فتنتها لتصرف « القائد الأمريكى » عن هـذه الفكرة ، كما صرفت من قبل « القائد الرومانى » عن الذهاب لمحاربة قيصر ...

لعل هذا هو السر الحقيقى فى انسحاب « ماك أثر » من معركة الانتخابات الأمريكية ! ...

وهكذا ظفرت « كليوباترا » باستبقاء حبيبها إلى جانبها وأقصته عن زوجته ووطنه وذويه ...

على أنها كانت هذه المرة ذات فأل حسن وأثر طيب على القائد

الأمريكى ... فقد حفزه قربها وألهبه ، فتوالت انتصاراته ... وصار يثب من جزيرة إلى جزيرة خلف اليابانيين ... يطردهم منها ويستولى عليها . . . وهو لا يرهب شيئاً إلا أن يبدو مندحراً أمام « كليوباترا » ... حتى تم له الفوز الأخــير . . . واستسلمت اليابان . . . ودخل « ماك أرثر » طوكيو دخول الفاتحين ...

ومرت أيام لم ير القائد أجمل منها ... وفى ذات عصر ، وقفت « كليوباترا » بجواره وأرسلت بصرها إلى البحر ، وقالت :

— أندرى يا « مارك » أقصد يا « ماك » . . . ما الذى يجول فى خاطرى ؟ ...

— ماذا يا « كليو » ؟ ...

— أتذكر يوم جئت إليك تحملنى تلك السفينة الجميلة ؟ ... لقد كانت هى عين السفينة التى ذهبت فيهـــا إلى « مارك » فى « طوروس » وقد استدعانى لأقدم حساباً عما نسبوه إلىّ من معاونتى لأعدائه ... ولقد أحب أحدنا الآخر بعدئذ ... ولكن برغم ذلك ... أى إذلال وهوان أن يستدعى رأس متوج ليمثل أمام قائد منتصر ! ...

ما قولك يا « ماك » لو استدعيت امبراطور اليابان ليمثل بين يديك ؟ ...

فأجفل « ماك أرثر » قليلا لهذه الفكرة ... إنه لا يجهـل خطورة الإقدام على هذا العمل الجرىء ... إن « الميكادو » شبه إله فى قومه ...

ونظر إلى حبيبته متردداً متوجساً ... ولكنها استقبلت عينيه بنظرة منها أسكرته ... فأحس قوة تدب فى قلبه دبيب الخمر ... وقال :

ـــ سأفعل ! ... سأفعل ياكليو ! ...

ولم تمض أيام حتى كان الأمبراطور بقبعته العالية الرسمية السوداء ، ماثلا أمام « ماك أرثر » فى مقر قيادته وهو بقميصه الكاكى ...

واهتز العالم لهذا الحادث ! ...

واستمرت بعـــد ذلك اللحظات السعيدة ، يرتع فى ظلها الحبيبان ، ويضحكان ويلعبان ...

وخرجا ذات يوم للصيد فى خليج طوكيو ... وكاد النهار يولى و « ماك أرثر » لم يظفر بسمكة ... وخجل من الهزيمة أمام حبيبته العظيمة ، فغافلها واتفق مع أحـد الصيادين الحاضرين ، على أن يغوص فى المـاء ويضع فى سنارته سمكة من صيده الطازج ، ونفذ الإتفاق ، وجذب القائد سنارته ، فإذا بها سمكة كبيرة ، أراها لحبيبته مزهواً ... ولكن كليوباترا لم تكن بالغافلة ... وأعدت للغـد عدتها ... واتفقت هى الأخرى مع الصياد سراً ... فلما جاء الغد ،

وضع «مالك» سنارته فى الماء إلى أن شعر بثقلها فجذبها ... فإذا بها : سردينة كبيرة مملحة مما يباع فى صناديق البقالين ...

ارتفعت عندئذ قهقهة الحاضرين ... وكاد القائد الأمريكى يغضب ، لولا قول كليوباترا البارع اللبق :

— أيها القائد الظافر ! ... مالك وصيد السمك ؟ ... اتركه لنا نحن العاديين والعاديات ! ... أما أنت فصيدك الجزر والمدن والملوك والأمبراطوريات ! ...

ما من أكليل غار يعدل هذا الإطراء من فم «كليوباترا» ! ...

عند ذاك ألقى «مالك» بصعا صيده ، وأقبل عليها وقلبه يقطر حباً ، وهو يهمس :

— ياعزيزتى كليو ! ...

* * *

لكن الحب شديد النهم ... إنه يأكل كل شىء حتى نفسه انه لا يقنع أبداً . . . ولا يعرف نهاية ولا حداً . . . لقد جعل «مالك أرثر» همه الأكبر بعدئذ مطالعة كتب المؤرخين ، اليونان واللاتين ، الذين كتبوا عن كليوباترا ... وخرج من هذه القراءة بقلب نهشته الغيرة ... لقد تبين له أن أكثر كلمات حبيبته التى تناجيه بها وتخلب ابه ، سبق أن قالتها بنصها ولفظها لمارك أنطونى ! ...

ودخلت «كليوباترا» عليه يوما ، فأبصرَت فى يده كتاب «بلوتارك» مفتوحا على فصل يصف أخبارها ... ففهمت لساعتها ما يجيش فى صدر حبيبها المقطب الجبين ، فابتدرته قائلة :

— أرجوك أن لا تصدق ما يهرف به هؤلاء المؤرخون !...

— كيف لا أصـــدق والعبارات التى أوردوها هى عين عباراتك التى أسمعها اليوم من شفتيك ؟ ...

— اسمع يا مارك ...

— من فضلك ... أنا اسمى ماك ... ماك ... إلى متى تظلين تخلطين بينى وبين الآخر ؟ ...

— ثق أنى لا أخلط ... وإنما لسانى يغلط ... هذا طبيعى ، أولا تريد للسانى أن يخطىء وهو الذى تعود ذلك الاسم منذ عشرين قرناً ؟! ...

— إياك بعد الآن أن تمزجى بيننا ... تذكرى دائماً أنك رأيته مندحراً ... أما أنا فإنك رأيتنى منتصراً ...

— نعم ... لقد كان حبى له شؤماً عليه ... أما حبى لك ، فكما ترى ، سعيد الطالع ... ولولاى لما انتصرت ... يجدر بك أنت أن تذكر دائماً أنى عدت إلى الحياة من أجلك ... هـذا مالم يحدث لبشر غيرك ! ...

سكن عندئذ ثائر القائد الأمريكى واستقرت نفسه ... ومضت أيام وهو هادىء مطمئن راض عن حبه ... ولكن الحب لا يرضى ولا يطمئن ... لأنه إذا فعل ذلك نام ، وهو كالقلب إذا نام مات ...

ورنت فى رأس « ماك أرثر » عبارتها الأخيرة : « هذا مالم يحدث لبشر غيرك » ! ... فردد مخاطباً نفسه ذات ليلة :

— حقيقة ... هذا مالم يحدث من قبل ... هذا هو المجد الذى لم يبلغه بشر ... كليوباترا تعود إلى الحياة من أجلى ! . . . ولكن من يعلم ذلك حتى الآن ؟ ... لا أحد سواى ... وما قيمة ذلك إذن ؟ ... ترى ماذا يحدث لو أذيع هذا الخبر العجيب ، ونشر فى صحف الدنيا : « كليوباترا بعثت لماك أرثر » !! ...

تلك هى المعجزة التى تتضاءل بالقياس إليها ألف أعجوبة مثل القنبلة الذرية ! ...

وتملكته هذه الفكرة ، واستحوذت عليه الليالى الطوال ... لابد أن يكشف أمر كليوباترا للعالم المتحضر ... ولم يتمالك ؛ ففاتحها برغبته قائلا :

— اسمعى يا كليو ! ...

— إنى مصغية يا ماك ...

— أخبرينى .. هل فكرت فى المستقبل ... أعنى فى مستقبلك ؟ ...

— مستقبلي ؟ ! ...

— نعم ... أتظلين هكذا! دائماً ضابطة مجندة في غمار المجندات لا يدري بك أحد ؟... أنت أجمل وأشهر ملكات التاريخ... تهبطين الدنيا ولا تشعر بك الدنيا ؟... تصوري ، لو أذيع أمر وجودك، أي أقواس نصر تقام لك في كل مكان ، وأنا بجوارك فخور بك... إنهم في أمريكا يحسدون من يقترن بإحدى النبيلات ، فماذا هم قائلون يوم يرون « ماك أرثر » وفي ذراعه « كليوباترا » أبهى الملكات وألمع المتوجات ! ...

— أيها الأمريكي ، أهذا هو الذي يشغل بالك الآن ؟... أهذا هو مصير حبنا ؟... تريد أن تستخدمه أداة إعلان ؟ ...

— بل أريد أن يكرمك هذا العصر ...

— يكرمني ؟... أتدري كيف سيكون تكريمي ؟... إني أعرف ما ينتظرني في بلدك... سأكون ملهاة للسياح ، يأتون لمشاهدتي من أطراف الأرض ، ومادة للصحفيين والمراسلين لا تنضب ، وموضوعاً للنساء في الصالونات والحفلات والمسارح والسباق ، يثرن الإشاعات حولي ، وينهشن بألسنتهن لحمي ، ويتضاحكن ويتغامزن قائلات : « أهذه هي التي قال التاريخ إنها فتنت القواد والقياصرة ؟... ماذا فيها من حسن وسحر وإغراء يثير الرجال؟!...»

ــ بل ثق أنك ستكونين أعظم امرأة فى زماننا هذا ...

ــ أعظم امرأة ثروة ... هذا محتمل جداً وجائز جداً ... فإن شركات الأزياء الكبرى فى أمريكا ستتزاحم عارضةً علىّ أبهظ الأجور لأروج لها أثوابها . . . وشركات الزينة والجوارب ، والعطور ، والصابون ، وكبار الحلاقين ، ودور النشر ، والمصورين ، ورجال الصناعة والمال والأعمال . . . إلخ . ولا تنس شركات هوليود السينمائية ... فمن المؤكد أنها ستتهافت طالبة إلى القيام بدور « كليوباترا » فى نظير مبلغ لم يدفع قط لإنسان ، ونل مثل ذلك عن مسارح برودواى الشهيرة ، ومن يدرى ما ستعرض على أيضا من عمل ومن مال ...

ــ طبيعى جداً أن يكون لك مال كثير وثروة ضخمة ، اتقتنى الجواهر والنفائس ، وتملكى فى كل قارة أكثر من قصر . وفى كل بحر أكثر من يخت ، وتعيشى حياة الترف الخليقة بك وباسمك العظيم ! ...

ــ اسمى العظيم ... حقاً سيكون كذلك ، يوم أراه منقوشاً بتوقيعى الكريم على كل علبة بودرة وكل زجاجة كلونيا وأحمر شفاه ، وصبغة أظافر ...! هذا هو عصرك وبلدك ... وهذا هو حبك ... وهذا هو كل مستقبلى ! ...

وقامت غاضبة ، وفى عينيها دمعة ، أخفتهـــا بأصبعها ،

وانصرفت مسرعة ، فنهض « ماك » خلفها وهو يصيح بها :

— كليو ... كليو ... إنى أمزح ! ...

— لا ... أنتَ لا تمزح ... إنى أقرأ ما فى أعماق نفسك ... إنك لن تستطيع طويلا أن تقنع بحبى لك فى زى ضابطة ... أنت تريد أن أحبك أمام الدنيا فى ثياب « كليوباترا » وإن صبرت اليوم فلن تصبر غداً ... إنى أعرف غروركم ! ...

— لن أقدم أبداً على أمر يغضبك ...

وبرق عندئذ فى رأسها خاطر ، فقالت :

— ومع ذلك ... فقد فاتنا شىء خطير ... ليس فى مقدورك أن تكشف أمرى ... إن ذلك يعرضك لكارثة : هب أنك أقدمت وأعلنت حقيقتى للناس ... أتعلم ما الذى يحدث ؟ ...

— ماذا ؟ ...

— يحدث لك ما حدث لكل من أعلن مثل هـذا الأمر من قبلك : لن يصدقك الناس ... فإذا أصررت وماريت وجادلت قادوك بكل بساطة إلى مستشفى المجاذيب ...

— ماذا تقولين ؟ ...

— أقول الحقيقة ... لقد كذبت عليك يوم قلت إن ظهورى

الك لم يحدث مثله من قبل لبشر ... الواقع أن كثيرين من الموتى يظهرون الأحياء ... وأن كثيرين من الأحياء يعيشون ويختلطون بالموتى ... إن الحاجز بين العالمين غير موجود ... إنه حاجز وهمى ، هو العقل الذى يسدل ذلك الستار بين هذين العالمين ... ولكن من الناس من يخرج أحياناً على سلطان العقل ، فيرفع فى الحال الستر لنفوسهم ويبصرون ما وراءه ويمتزجون بمن خلفه... فإذا احتفظوا بهذا السر لأنفسهم سلموا ... أما إذا باحوا به فقد اتهموا بالجنون ... ثق أن كثيرين قد ظهرت لهم « حتشبسوت » و « نفرتيتى » و « سميراميس » كما ظهرت أنا لك ... وعاشـــوا متحابين آمنين ما بقى السر مكتوما ... أما الذين فقـــدوا ضبط أعصابهم فأعلنوا ذلك للناس ، فهم أولئك الذين تراهم يعمرون مصحات الأمراض العصبية والعقلية ...

— ما أظلم الناس ! ...

— بل ما أظلم العقل !.. هو الحاكم المسيطر فى حياة البشر ، الذى يحجب عنهم نصف الوجود ، فمن جرؤ ونزعه ليرى خارجه ... لم يقل الناس إنه تحرر ، بل قالوا إنه مرض ... ذلك أن هذا الحاكم الجبار — ككل طاغية — لا يسمى الخارج عليه متحرراً ، بل يسميه مريضاً يستحق العلاج والحبس ...

— من حسن الحظ أن أمريكا بلد الحرية ، ونحن فيها نكره الطغاة والمسيطرين ... وإنك سترين للحرية تمثالا عظيما عند مدخل نيويورك ... فاطمئني ياكليو ، ولا تخافى شيئاً ...

— حقاً ... إنها الحرية فى تمثال ، ولا أكثر من تمثال ! . . . ستبوح للناس إذن ؟...

— لا ... لا ... لم أقل ذلك ...

— أرى فى عينيك ...

— إذا وافقت أنت ... ومن يدرى ؟... قد توافقين يوما ...

— سترى إذن ما أصنع ...

* * *

مرت أسابيع ... وإذا صحفى ذو شأن يأتى من نيويورك ليجرى حديثاً مع « ماك آرثر » ...

وطالعت « كليوباترا » فى وجه القائد الأمريكى ما رابها وأثار قلقها ... وأدركت أنه قد لا يستشيرها ، ورجحت أن لسانه سينطلق ... وأنه قد يضعها أمام الأمر الواقع وجهاً لوجه ... ويقدمها للصحفى قائلا :

— « الملكة كليوباترا » أو « مسز كليوباترا » !...

لم تطق هذه الفكرة ... وأسرعت من فورها تبحث عن

ثعبان ...

لقد جربت الموت من عضته ... إنه لا يحدث تشنجا ولا تمزقا، بل يغرق الإنسان في شبه نعاس هادىء يتمنى من يقع فيه أن لا يصحو منه ... إلى أن تضعف حواسه ويموت موتا لذيذاً ...

غير أنها ذكرت وقتئذ أن « الاسبيرين » يحدث اليوم عين الأثر ... فاضطجعت على فراشها وهى بملابس الضابطة ... فابتلعت أنبوبتين ...

وعلم « ماك » بالحادث ... فدخل عليها مسرعا ، فوجدها فى النزع الأخير ... وانحنى عليها متفجعا ، وهمس فى أذنها :

— كليو ... كليو ... ماذا صنعت ؟ ! ...

فقالت وهى تحتضر :

— هل أخبرت الصحفى ؟ ...

— كلا يا كليو ...

— ماك ... احفظ سرى فى قلبك وحده ! ...

وأسلمت الروح ... للمرة الثانية ... وربما للمرة الثالثة أو العاشرة ... أو المائة ... لا أحد يدرى ...

ظل هـــذا السر مكتوماً بالفعل زمناً ... إلى أن مرض «ماك آرثر» بحمى خفيفة ، فجعل يهذى فى الليل ، ويقول للممرضة

القائمة على فراشه :

ــ كليو . . . كليو . . . هل عدت إلى الحياة مرة أخرى من أجلي ؟ ! ...

وحار جميع من حوله فى أمر « كليو » هذه ... فهم لم يسمعوا « الجنرال » يلفظ هذا الاسم أمامهم من قبل ...

وتساءلوا من تكون ؟.. أتراها تلك الضابطة «مسز كليتون» سكرتيرته التى أمضها الأرق ، فماتت منتحرة بالاسبيرين ؟ ! ...

هكذا قال من أخذ الأمور بظواهرها ... أما الحقيقة التى لم تنشر حتى الآن ، فهى التى رويت هنا بحذافيرها ... ولمن يرتاب أن يلجأ إلى الجنرال « ماك آرثر » نفسه ... وهو لن يستطيع أن ينفى الواقعة ...

موقف حرج

حدث ذات صباح أن كنت جالساً على إفريز المقهى المعتاد بجوار صديقى حسن « بك » ... وهو ليس من أصحاب الألقاب ولا حملة الرتب ، ولكن هكذا نناديه ، لأن حب المظهر شيء فى دمه ، والرغبة فى « التظاهر » طبع فيه ...

مر بى فى ذلك اليوم مصادفة ، فأجلسته وأكرمته ، ولم أكن رأيته منذ شهور ... وأمرت له بفنجان من القهوة ... وأخذنا فى الحديث ... وإذا شخص يدنو منى مبتسما مترددآ ، فالتفت إليـــه وبادرته :

— من حضرتك ؟ ...

— أنا اسمى ... مرقص ...

— طلباتك ؟ ...

فمال على أذنى هامساً :

— هل تقبل أن تكسب خمسين قرشاً فى اليوم ، وأنت جالس فى مكانك هذا ، بدون أن تصنع شيئاً ؟ ...

— بالطبع ... لا موجب للرفض ...

قلتها على البديهة ، كأنها من وحى الشعراء .

فبادر الرجل يقول :

ــ إذن اتفقنا ... وهذه دفعة على الحساب ...

وأخرج بالفعل ورقة مالية من فئة الخمسين قرشاً ، دسها فى كفى ، فوضعتها على الفور فى جيبى ، وأنا أقول :

ــ اتفقنا ...

وانصرفت عنه إلى استئناف الحديث الذى انقطع بينى وبين حسن « بك » ، ولكن الرجل حدجنى بنظرة شديدة وقال :

ــ ألا تسألنى عن أصل الموضوع ؟!...

ــ أى موضوع ؟...

ــ لماذا إذن أعطيك هذه النقود ؟...

ــ وهل أنا أعرف ؟... كل معلوماتى فى الأمر ، أنه قد تم بيننا اتفاق ... ألم يحصل بيننا الآن اتفاق ؟... ألم يقع عرض وقبول ؟.. أما من جهتى فقد قبلت وانتهى الأمر... بهذه المناسبة أحب أن أستفسر منك لماذا تعطينى هذا المبلغ ؟...

ــ أخيراً ... اسمع يا سيدى ... المسأله بسيطة ... أنت تجلس هنا دائماً تراقب المارة فى غير شىء ، فلن يكلفك جهداً أن تراقب سيدة يقال إنها تتردد على هذه العمارة ... فتعرف لنا فى أى ساعة بالضبط تدخل ، وفى أى ساعة تخرج ؟...

— وما شأنك بهذه السيدة ؟ ...

— لا شأن لى بها على الاطلاق ، ولم أرها قط ...

— عجبا !... وما الداعى إذن لأن تجعلنى «شرلوك هولمز» فى مسألة لا تعنيك ولا تعنينى ؟ !...

فتنحنح الرجل ثم قال :

— فلنتكلم بصراحة ... لا أحسن من الصدق والصراحة ... أنا فى الحقيقة المكلف بهذه المراقبة فى نظير مبلغ جنيه ، ولكنى مشغول بعمل آخر ، وليس لدى الوقت الذى يمكننى من أداء هذه المهمة ... ففكرت فى أن أستأجرك من الباطن ، ونتقاسم المبلغ ..

— عظيم يا مرقص افندى ... أنت فى الحقيقة هو الذى لا يصنع شيئاً ويتقاضى خمسين قرشاً ...

— وأنت أيضاً لا تصنع شيئاً ...

— كيف تقول ذلك يا مرقص أفندى ؟... وأنا الذى سأقوم بكل المهمة ...

— بالاختصار تريد أن أنزل لك عن جزء من حصتى ؟ ... فليكن ما تريد ... أنا لا أحب أن أغضبك ... إليك عشرة قروش أخرى ...

— خمسة وعشرين من فضلك !...

— تريد أن تأخذ ثلاثة أرباع الجنيه ، وأنا الربع ؟!...

ـ هكذا العدل ...

فنفخ الرجل غيظاً ... ولكن لم يجد من القبول بداً ... فأخرج من جيبه فرق المبلغ ، ونقدنى إياه دون أن ينبس بحرف ... فوضعت النقود فى جيبى ووعدته خيراً ، وانصرفت عنه إلى محادثة جليسى ... ولكن الرجل لم ينصرف ، ودنا منى يقول :

ـ حضرتك لم تسألنى عن السيدة ...

ـ أى سيدة ؟ ...

ـ التى ستراقبها ... كيف ستقوم بمراقبتها وأنت لم تعرف منى أوصافها ؟...

ـ حقيقة ... غاب عن فطنتى ذلك ... اذكر لى أوصافها ...

ـ خير من هذا أن أريك صورتها ، لتنطبع ملامحها فى رأسك جيداً ... إليك الصورة ... انظر ...

وأخرج من محفظة جيبه صورة فوتوغرافية لامرأة مليحة أطلعنى عليها بحذر وهى فى يده ... فقلت له :

ـ هل تسمح لى أن أحتفظ بالصورة ؟ ...

ـ ليس هذا من المستحسن ، لأنى وعدت أن أحرص عليها ولا أسلمها لأحد ...

— ومن الذى أعطاك إياها ؟ ...

— لا يا سيدى ، هـذه أسرار خاصة ، لايجوز لنا الخوض فيها ... هذا لا يعنينا ... فلنعمل فى حدود التكليف ، ولا دخل لنا فى الباقى ...

— أهو زوجها ؟...

— لا أظن ...

— لعله خليلها ؟ ...

— ربما . . .

— خليلها يشك فى سيرها ويغار على سلوكها ؟! ...

— فراستك فى محلها ... على كل حال هـــذا باب أنصحك ألا تفتحه أو تفتش خلفه ... أسرار العائلات وخفايا البيوت يجب أن تكون عندنا فى الحفظ والصون ...

— مفهوم ، مفهوم ...

— والآن ... أنا معتمد عليك ...

— اطمئن . فقط لا أخفى عنك أن ذاكرتى ضعيفة ولا يعتمد عليها ، فمن مصلحة العمل أن تترك لى الصورة ، ولو ليوم واحد ، أرجع إليها وأطابق حتى لا يحدث لبس أو غلط ... إن السيدات المارات كثيرات ... ومن الصعب على مثلى أن يفرز هذه من تلك ...

ففكر الرجل لحظة ، وهرش رأســه قليلا ثم مد لى يده بالصورة وهو يقول : « لا بأس ... أبقها معك اليوم » وأوصانى بالمحافظة عليها لحين ردها إليه فى الغد ...

وانصرف مرقص افندى مشيعاً بعبارات التجلة والاحترام ، وما كاد يختفى عن بصرى ، حتى ملت على جليسى حسن بك وقصصت عليه القصة من أولها إلى آخرها ـ مع حذف مسألة الخمسة والسبعين قرشاً بالطبع ـ وختمت الكلام بقولى :

ـــ أنت تعرف أن غفلتى أكبر من فطنتى ، وأن سهوى أكثر من صحوى ، أما أنت فكثير الفطنة ، شديد اليقظة ، فما رأيك لو قمت عنى بهذه المهمة ... وألقيت بالك إلى كل سيدة تدخل العمارة أو تخرج منها ، وتطابق أوصافها على الصورة التى سأطلعك عليها الآن ؟... على أنى قبل كل شىء أحب أن أصارحك بأن هذا عمل بأجر ...

فضحك حسن بك وقال :

ـــ لا عليك ... إننى سأقوم به لوجه الله ...

ـــ لا يا سيدى الفاضل ... الشغل شغل ... لا يوجد شىء اسمه لوجه الله ... وهل تظن وجه الله يرى بلا ثمن ؟... هذا التعبير خطأ فى خطأ ... ولست أدرى من ابتدعه ... إن وجه الله لا يشاهد بالمجان،

بل بمصروفات ... وإليك البيان : لابد من دفع صدقة وزكاة ، ونذور ، وفداء ، وكفارة ، ونفقات حج ، وتكاليف زيارة ، وإغاثة ملهوف ، والتضحية فى العيد بخروف .. إلى آخر تلك المبالغ التى لو جمعتها لكان الحاصل رقما لا يستهان به ... فدع فكرة التبرع وتناول أجر عملك طبقاً للأصول المعمول بها فى جميع الأحوال ..

— أمرك ... أتقبلنى الأجر إذن ...

— سأدفع لك ثمن فنجان القهوة ... أتقبل ؟ ...

— قبلت ...

قالها راضياً مغتبطاً ، ومد يده ليتناول من يدى الصورة ... فقلت له :

— مهلا ... يجب أن تردها إلىّ قبل قيامك ... فقد وعدت أن أردها إلى الرجل غداً ...

فقال بابتسامة بريئة :

— طبعاً ... وما الداعى لاحتفاظى بها طويلا ؟ ...

فوضعتها فى كفه ... فرفعها إلى عينيه باسماً بغير اكتراث ... ولكن لم يكد بصره يقع عليها حتى امتقع لونه ، وارتجفت يداه ، وارتعشت شفتاه ... وهالنى أمره . فقلت له :

— حسن بك ... مالك ؟ ...

فلم يجب ... وخيل إلى أن أذنه لم تعد تسمع ... وجمدت عيناه على الصورة وتصبب العرق من جبينه ... فهززته بيدى قائلا :

— مالك يا حسن بك؟... هل ... هل تعرفها ؟...

فقال بصوت ميت ينشر من قبر :

— كيف لا أعرفها وهى ... زوجتى ؟ ! ...

وانتفض الرجـــل انتفاضة خلت روحه قد خرجت معها ، ووثب من مقعده ، وانطلق فى الشارع يعدو كالمجنون... ولم يلبث أن غاب عن نظرى الشارد ، وفكرى الذاهل ... وكدت أصيح فى أثره :

— الصورة ... الصورة ...

ولكنى تذكرت فجأة كارثته ... وأدركت أنها له ... وأنه أحق أهل الأرض بحملها والاحتفاظ بها ... فملكت نفسى ... وثاب إلى رشـــدى قليلا قليلا فلعنت يومى ... ولعنت مرقص أفندى ... ولعنت الخمسة والسبعين قرشا التى خسرت من أجلها صديقى ، وخسر الصديق زوجته ، وخسرت الزوجة خليلها ... ولو كنت أعلم أن المهمة ستؤدى إلى هذه الفواجع كلها ، لطالبت مرقص أفندى بما لا يقل عن خمسة جنيهات ...

مراكب الشمس

(١)

رقدت زوجة فرعون على فراشها الملكى تستقبل الموت ، ولم تكن عيناها المنطفئتان متجهتين إلى زوجها الحزين بجوارها ولا إلى وصيفتها الواجمة ... بل إلى حياتها هى ... إلى ماضيها ... ويا له من ماض فارغ على قصره ... ويا لها من حياة فاترة فقيرة على الرغم مما يحف بها من أبهة وثراء ... إنها تموت وهى فى ربيع العمر ... ما أجمل يوم صادفته على الأرض، حتى تستطيع الساعة أن تبكيه بقلبها الذى لم يبق أمامه غير بضع نبضات ؟ أما دمع العين فقد جف مع نبع الحياة التى قهرها المرض ، ما هو أجمل يوم لها فى عمرها الذى لم يتجاوز الرابعة والعشرين ؟... أهو يوم زُفّت إلى زوجها وأخيها ... هذا الفرعون الشاب الواقف عند رأسها؟... إنه أخوها من أبيها وأمها ... معه نشأت منذ الطفولة ... وهى تحبه ولا شك ، ولكن ... لا ... إنها تعرف الآن أن هذا ليس هو الحب الذى ينبض له القلب ... وهل نبض قلبها مرة ؟... نعم ... مرة واحدة ... انتفض وأضاء وانطفأ ... كاختلاجة الشمعة الأخيرة ... تاركا حياتها بعد ذلك فى الظلام ، إنها تذكر

تلك اللحظة ... كان مساء رقيق النسمات فى يوم من أيام الربيع الماضى ... خرجت إلى النزهة فى النيل ، وقد أعدت القوارب الملكية ، وأحاطت بها الجوارى بالدفوف والمزامير وآلات العزف ... فأقبل الشعب فى جموعه لتحية الملكة الجميلة ... وإذا هى تشعر فجأة بعينين تنفذان من بين سواد الشعب كأنهما شهابان ملتهبان ، لمعا سريعاً وسقطا فى هوة قلبها الفارغ ... من صاحب هاتين العينين ؟ ... ولماذا حدق فى وجهها هذا التحديق ؟ ... ولماذا ارتجفت لنظراته ؟ ... كل ما تعلم هو أن الحراس أبعدوه عن طريقها ، وأنها سارت بعد ذلك على غير هدى ... تلك هى الخلجة الأولى والأخيرة لهذا القلب الملكى ... أما الآن فماذا ينتظرها ؟ ... نزهة أخرى فى قارب آخر ... مركب الشمس ! . . . نعم ... إنهم ولا شك قد فرغوا من صنعه لها وإعداده . . . وعما قليل تحنط ويلقى جثمانها فى تابوت مزخرف ويوضع فى قبر سرى . . . أما روحها فيتلقاه الكاهن الأكبر ، ويحمله إلى مركب الشمس ، بين تراتيل الكهنة وصلواتهم ... ثم يلفظ كلماته السحرية فيرتفع المركب بالروح إلى الفضاء نحو أبواب السماء الأربعة والعشرين ! ... هذا ما عرفته يوم مات أبوها الفرعون الكبير ، كانت فى الرابعة عشرة من عمرها ، لا تدرك كثيراً عما يجرى حولها ، ولكنها

رأت تلك المراسيم . . . وسألت يومئذ كبير الكهان بسذاجة الطفولة بعد أن فرغ من عمله :

ـ هل ارتفع المركب بروح أبى إلى الفضاء ؟...

فقال الكاهن :

ـ نعم ... وهو الآن يسبح فى شعاع الشمس ، وتضرب مجاديفه النور المتدفق كالأمواج ، على نغم الأغانى والأهازيج ...

فقالت الطفلة وهى تنظر إلى مركب الشمس بخشبه المصنوع من شجر الأرز :

ـ ولكن المركب فى مكانه لم يتحرك ! ...

فأجاب الكاهن :

ـ روحه هو الذى تحرك ... حاملا روح أبيك ...

فسألت الطفلة :

ـ وما هو الروح ؟...

فقال الكاهن :

ـ هو أنت بغير ردائك الجسدى !...

ولم يدع لها فرصة سؤاله بعد ذلك ... كأنما هو قد ضاق بالحديث مع الأطفال فى هذه الشئون . . . فانصرف سريعاً . وتركها تسأل نفسها عما لم تفهم . . . وهيهات أن تفهم ! . . .

وها هى ذى ... الآن فى موضع أبيها ... وبعد برهة يأتى نفس هذا الكاهن ويلفظ كلماته السحرية ويعلن أن روحها قد حمله مركب الشمس ، سابحا به فى أمواج النور ... ولن يجد بعدئذ من يلقى عليه أسئلة ... لأن السؤال الأخير الذى لفظته شفتاها وهى تلفظ آخر أنفاس الحياة ، وهو ما لن يجيبها عنه أحد ، هو :

ــ لماذا ، ولمن خفق قلبها تلك الخفقة فى مساء ذلك اليوم من أيام الربيع ؟ ...

(٢)

كان صانع مركب الشمس الذى سيحمل روحها إلى السماء ، قد فرغ من عمله ، وجاءت جماعة من الكهنة فحملوا المركب إلى حيث تجرى عليه الطقوس ... وألقى الصانع نظرة أخيرة على مركبه من عينيه النافذتين ، ثم مضى إلى حانة نبيذ اعتاد أن يلتقى فيها برفاقه ... دخل الحان وارتمى إلى جوار صديقه ناحت التماثيل ، دون أن ينبس بحرف ... كانا صديقين قديمين . . . جمع بينهما الصبا ... وربط بين قلبيهما حادث لا ينساه المثال ؛ فقد هبط النيل يوماً ليأتى ببعض الطمى ، ففاجأه تمساح كاد يفترسه ، لو لم يعاجله صديقه النجار بضربة من سكينة ،معرضاً حياته للخطر . كان كل منهما موضع سر الآخر ... ويوم أحب المثال وصيفة الملكة ،

لم يتردد فى إحاطة صديقه بكل التفاصيل ... قال له إنه صادفها مرات يوم كان مكلفاً ببحث بعض التماثيل لفرعون ، وإن الأمر بينهما انتهى بما يشبه الخطبة ، لولا مرض الملكة ...

أما صانع مركب الشمس فكان فى صدره سر ، لم يجرؤ أن يبوح به لصديقه ولا لمخلوق ... إلى أن كان ذلك اليوم ...

جلس صامتاً ، فالتفت إليه صديقه المثال ، وقد طرح من يده القدح :

— أراك تبكى ! ...

— أترى فى عينى دموعاً ؟ ...

— ليس فى عينيك ...

قالها المثال بنبرة من يؤكد أنه أعرف الناس بما فى أعماق صديقه ... وصمت الاثنان لحظة ... وعاد المثال إلى قدحه ، فجرع منه جرعة ... ثم قال لصديقه :

— إنك تخفى عنى سراً ...

فأجاب صانع المراكب بغير مقاومة :

— نعم ...

— لماذا ؟ ...

— لأنه جنون ...

— تكلم !... إنى صديقك الوحيد ...

فأطرق صانع المراكب هنيهة . . . ونظر إلى وجه صديقه ملياً ... ثم عاد إلى الإطراق ... فقال له المثال :

— تخفى عنى ؟!... أتخاف منى ؟ ...

— بل أخاف عليك ... أخاف أن تفجع ...

— لا تخف ... تكلم ! ...

فتجلد النجار وتحامل وهمس :

— أحببتها ... ولم أزل أحبها ... وسأحبها دائماً ...

— من هى ؟ ...

— الملكة . . .

فكاد القدح يسقط من يد المثال.. ولفظ من شفتين ترتجفان :

— ماذا تقول ؟ ...

— ألم أقل لك إنه جنون ...

أطلقها مع ضحكة صغيرة كضحك المخبولين ، جعلت صديقه المثال ينظر إليه فاحصاً وقد سرت فى جسمه رعدة ... ولكنه تماسك وسأله :

— ومتى رأيتها ؟ ...

فهمس صانع المراكب وكأنه يرى ما يقول ماثلا أمامه :

— ذات مساء فى يوم من أيام الربيع ...

(٣)

كانوا قد فرغوا من تحنيط الملكة ، وأخذوا يلفونها فى الأربطة البيضاء قبل أن توضع فى التابوت ... وكانت الوصيفة بين الحاضرين دامعة العينين ... فاقترب منها كاهن صغير وأسر فى أذنها كلاماً ، فهزت رأسها برفق إشارة الموافقة ... وما أن انتهى عملها ، حتى انسلت خارجة إلى دار خطيبها المثال ... حيث وجدته منفرداً بصديقه النجار ... فما كاد يراها داخلة حتى نهض يستقبلها بقوله :

— لى عندك رجاء ! ...

هذا الرجاء لم يكن له هو فى الحقيقة .. إنما هو ثمرة مناقشات وتوسلات دامت أياماً بينه وبين صديقه ... لم يكن للصديق من مطلب فى الحياة بعد موت الملكة إلا الحصول على تمثال لها ، يعيش إلى جواره ، ويبثه حبه الخالد ... لكن كيف الحصول على تمثالها ؟ . إن هذه الملكة الشابة لم يصنع لها غير بضعة تماثيل رسمية لا سبيل إلى الوصول إليها ... ثم هى فوق ذلك غير متقنة التصوير ولا بارعة التعبير ... فهذه الملكة المسكينة لم يمد لها فى العمر حتى يحفل بأمرها الفن ... فقد كان أكثر المثالين الرسميين مهتمين بتماثيل الملك ... وعندما قال المثال لصديقه النجار إنه لم يكلف بصنع تمثال واحد

للملكة ، إنما كان صادقا ... عندئذ طلب إليه الصديق أن يصنع لها تمثالا من أجله ... من أجله هو الذى أحبها حية وميتة دون أن يخاطبها أو تخاطبه ... دون أن تعرف من هو ... دون أن تشعر بحبه ... دون أن يصل بينهما غير شعاع من نظرة ، فوق هوة كتلك التى تفصل بين أرض ونجم ... وحتى النجم قد انطفأ ... كل ما يريد من الحياة هو تمثالها ... أيضن عليه الصديق بصنعه ؟... ولكن كيف يستطيع المثال صنعه وذاكرته لا تعى من الأصل غير أثر باهت المعالم ... فهو لم ير الملكة إلا فى شبه لمحة خاطفة ، ولم يتأملها التأمل الكافى .. وهو الآن لا يذكر من ملامحها شيئا ... لو استطاع أن يشاهد وجهها الآن ولو لحظة لأمكنه صنع التمثال ... عندئذ صاح به صديقه أن هذا الأمر ليس بعسير ... إن الوصيفة خطيبته ... وفى مقدورها أن تدبر له الوسيلة ، فيرى وجه الملكة قبل أن يحكم عليها غطاء التابوت ... ومن يدرى ؟... ربما أتاح له الصديق وأراد له القدر أن يصنع فى الفن أثراً عظيما ... فهو لا يكلف بتمثال رسمى إرضاء للملك ... ولكنه يخلق فناً من وحى الشعور ... وهكذا تم الإغراء ... وتحمس الفنان ، إرضاء للفن وللصداقة فى آن ...

— لى عندك رجاء !...

قالها المثال للوصيفة مكرراً ... ثم شرح لهـا الموضوع . . .
فأجفلت وارتاعت ... ما هذا الجنون ؟... أهناك مخلوق يفكر في
رؤية ملكة مقدسة وهي في تابوتها ليصنع لها تمثالا ؟... هـــذا
بالطبع كل ما فهمته ... فالمثال لم يجرؤ أن يفضى إليها بحب صديقه
الملكة ... كل ما قال هو أنه يقدسها ولم يجد بين تماثيلها ما يستحق
الخلود ... وأن الفنان قد راقت له فكرة القيام بهذه المهمة ،
ويرجو من خطيبته أن تعاونه على تحقيق هدف فني جليل ...

وانتهى الأمر بالوصيفة أن أذعنت لرجاء خطيبها الفنان
وقالت :

— فلنسرع إذن قبل أن يغلق التابوت عند الفجر !.. ورسمت
الخطة ... إنها تعرف سرداباً خفياً يصل إلى مكان التابوت وصفته
لهما .. وأوصتهما أن يجيئا في ثياب الكهنة ، عند منتصف الليل...
وستكون هي في الانتظار عند باب السرداب ... وتركتهما وهي
تحذر حبيبها الفنان باسمة :

— وحذار أن تكثر الليلة من الشراب ! ...

(٤)

اتفق الصديقان على اللقاء في الحان المعهود عند هبوط
الظلام ... وأقبل صانع المراكب فوجد صاحبه الفنان قد سبقه ،

وملا جوفه ببضعة أقداح وهو يقول متمايلا :

— لا تخش شيئاً ... إن قليلا من النبيذ يشحذ ذاكرتى ... وأنا أحوج الناس الليلة إلى الذاكرة القوية ... فعلى صفحتها ستنطبع صورة النموذج ... ذلك الانطباع الذى سيمدنى بالوحى ...

فنظر إليه صانع المراكب بقلق :

— ولكنك أسرفت ...

فقال الفنان ضاحكا ضحكة صاخبة :

— أنا ؟... مطلقاً ... إنى أعرف معيارى ... ويجب أن أزيد قليلا عند القيام بعمل هام ... تلك عادتى ... وبهذا صنعت من التماثيل أعاجيب !...

ورفع قدحه وجعل يجرع حتى سقط القدح من يده ... وعندئذ لم يتمالك صديقه وأنهضه بعنف وخرج به من الحان ... وسار به يسنده حتى لا يسقط ، إلى أن بلغا دار الفنان ، وكان من المتفق بينهما أن يغيرا فيه ثيابهما ، ويرتديا ثياب الكهان ... لكن المثال ما كاد يدخل داره ويلمس جسمه فراشه الناعم حتى ارتمى ارتماءة لا أمل بعدها فى يقظة قريبة ... وحان الموعد المضروب عند منتصف الليل والصديق يحاول عبثاً أن يفيق صديقه المخمور ... حتى أدركه اليأس وقال فى نفسه :

— أهي مشيئة الآلهـــة ؟..! أهو سوء حظي ! ... ما العمل الآن ؟ ... الوصيفة تنتظر ... وهذا الحيوان في سباته ؟! ... أكل شيء ضاع ؟! ...

وفكر ملياً ... ورأى الموقف بوضوح ... أما تمثالها فلا أمل فيه الآن ... ولكن أيترك الوصيفة في الانتظار طول الليل دون جدوى ؟ ... أم يذهب إليهـــا ويخبرها بمـا حدث ... ولمـاذا لا يذهب ؟ ... بل ولماذا لا يلقي هو النظرة الأخيرة على حبيبته المسجاة في تابوتها ... تلك النظرة التي ستطبع ولا شك تمثالها في رأسه هو إلى الأبد ، أقوى وأصدق من أي تمثال من الحجر ! ...

وارتدى هو ثوب الكاهن... وترك صديقه مرتمياً على فراشه ، وغادر الدار إلى مكان السرداب ...

وهناك وجد الوصيفة منتظرة في الموضع المتفق عليه ... فلما رأته وحده تغير وجهها وبادرت تسأل :

— جئت بمفردك ؟ ...

فأجاب باقتضاب :

— خالف نصحك وشرب ...

— وأين هو الآن ؟...

— مخمور في فراشه ...

فتحركت مديرة ظهرها تريد الانصراف لشأنها ، وقد فهمت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد ... ولكن صانع المراكب استوقفها :

— دعينى أنا أنظر إليها !...

— أجننت ؟...

— أتوسل إليك !...

— وما غرضك أنت من ذلك ؟ ...

— نظرة واحدة ... أخيرة ...

— أفى عقلك مس ؟ ...

وأمسك بيدها كما يمسك مخلب الصقر بالحمامة، وقال بصوت آمر حاسم أجش مخيف :

— قودينى إليها !...

ودفعها أمامه ... فلم تجد بدأ من الطاعة .. فمشت به فى المسالك المظلمة الطويلة لهذا السرداب الخفى ، إلى أن بلغت نهايته ، فطرقت بيدها جانباً من الجدار ، وإذا بحجر كبير ينفرج عن باب يؤدى إلى قاعة متسعة مزينة بالنقوش مضاءة بمصابيح مستترة فى كوات بالحيطان وخلف الأعمدة ... ولم يكن بالقاعة أحد فقد غادرها الكهنة منذ قليل ... وكان لها باب كبير مغلق ، وقف عليه الحراس

من الخارج .. ولم يجد صانع المراكب فى القاعة ما يلفت نظره المعتاد على هذه الأمكنة المقدسة ، ولم يحاول أن يبحث ببصره هناك إلا عن شيء واحد هو : التابوت ... وقد وجده موضوعاً فوق مصطبة من الحجر فى صدر المكان ، وقد سلط عليه نور خفى ، يوحى إلى الناظر أنه منبعث من إشعاع خشبة المطلى بالألوان أو منبثق من ذلك الجسد المسجى داخله ... ووقف صانع المراكب جامداً أمام التابوت لحظة ... إلى أن ذهب عنه الروع فمد يده إلى غطائه الخشبى ، يريد رفعه ، فتعلقت بذراعه الوصيفة تحول بينه وبين ما يريد ، فتخلص منها. وتقدم إلى الغطاء بذراعيه القويتين فكشفه ، وظهر من تحته جسد الملكة ملفوفا فى الأشرطة البيضاء ... فتسمر الصانع فى مكانه وارتعد ... ودق قلبه دقات سريعة ... وكأن رأس الملكة ككل جثمان مخفياً فى اللفائف .. فتجلد ومد أصابعه لينحى الأربطة عن وجهها ، فجذبته الوصيفة بعيداً وهى تهدر من الغضب هديراً مكتوماً :

— كف عن هذا ! ... كف عن هذا ! ... أيها الوحش النابش للقبور ! ... أخرج وإلا صحت ! ...

فأسرع ووضع كفه على فمها ... فقاومته ... وأرادت الإفلات والصياح ، فقبض على عنقها ... وأذهله الموقف عما

فعل ... ولم يدر هل ضغط بقبضته أو لم يضغط ... ولم يقدّر مدى قوة أصابعه ... كل ما وعاه هو أنها سقطت من بين يديه على الأرض ... فوقع فى الحـــيرة لحظة ... لكنه تذكر ما جاء من أجله ... فترك الوصيفة فى مكانها ملقاة ، واندفع إلى الملكة المحنطة فحل الأربطة عن رأسها ، وانكشف وجهها الجميل الشاحب ، وقد زاده صفاء الموت حسناً ... أين المثال الذى يستطيع صب هذا الجمال فى حجر ؟... هذا ما دار فى ضمير العاشق الذاهل وهو يتأمل هذا الوجـه الإلهى ! ... ولم يكن فى تلك اللحظة الفريدة يتأمل بوعى عاقل ... فقد كف عقله عن الحكم والتحكم ... إنما هو شعور يملأ كيانه كالإشعاع المدمر ... ولم يستطع أمام هذا الجمـال أن يتقدم أو يتأخر ... جمد فى مكانه ، وأيقن أن من المستحيل عليه الإنصراف الآن ... قوة خفية تربطه إلى هذه الملكة المحنطة ... لا فرار منها ولا فكاك ... إما أن يدفن معها أو تعيش معه ... وهنا لمعت فى أعماقه فكرة ولم يتردد عن تنفيذها ولم يحجم ، وهل يتردد الإنسان عن انتزاع الروح التى بهـا يحيا من أى مكان ... وتقدم من ساعته إلى الجثمان المحنط فنزع عنه اللفائف ورفعه من التابوت ودثره فى ردائه واحتضنه بين ذراعيه وأراد أن يمضى به دون وعى من حيث جاء ... فعثرت قدمه بالوصيفة الملقاة على

الأرض ... فثاب قليلا إلى رشده ... ورأى ما هو فيه من حرج ... أيذهب بالملكة ويترك التابوت هكذا فارغاً ، والوصيفة هكذا ملقاة ؟... إن الدنيا كلها ستقوم وتقعد بعد قليل ... وساورته الأفكار المتضاربة .. ماذا يفعل ؟... أيمضى ؟... أيرجع ؟ ... وخطر له خاطر ... لم يتردد هذه المرة أيضاً فى تنفيذه على الفور ...

وأسرع إلى الأربطة البيضاء فالتقطها ولف بها جسم الوصيفة ورأسها ، ثم أرقدها فى التابوت موضع الملكة ...

وحمل الملكة على كتفه وخرج بها من السرداب ...

(٥)

طلع الفجر ... وبدأت مراسيم الاحتفال الدينى بحمل التابوت إلى المقبرة الملكية ... فاحتشد الكهنة ... وحضر فرعون وأسرته وعلت التراتيل ... وقدمت القرابين ... وألقيت نظرة أخيرة على الجسد الملفوف فى الأربطة ، لا ترى منه شعرة ، وأُحكم غطاء التابوت ، ثم نقل إلى القبر السرى الذى لا يعرف مكانه غير أشخاص معدودين ... وفرغ القوم من أمر الجسد ، واتجهوا إلى العناية بمصير الروح ... فاقترب الكاهن الأكبر من مركب الشمس الذى أُعد للملكة فباشر المهمة المعهودة ... وقام بالطقوس المعتادة ـ ونطق بالكلمات الدينية ، والتعاويذ السحرية ، ثم نهض

يعلن إلى الملأ : أن مركب الشمس قد تحرك حاملا روح الملكة المقدس نحو السماء ، وأنه يسبح الآن فى الفضاء ، تحف به أنغام التراتيل والغناء ...

(٦)

فى تلك اللحظة ، كانت الملكة فى مركب حقاً . . . ولكن ليس مركب الشمس ، بل مركب فى النيل ، يسبح بها إلى الضفة الأخرى ... كان جسدها المحنط محتفظاً بطراوته ولدانته ونضارته ، وأريج العطور من حولها منتشراً ... وكانت موضوعة فى مقعد المقدمة وضع الجالس المتكىء ... وأمامها جاس سارقها صانع المراكب يضرب بمجدافيه صفحة الماء ... ويرنو إليها ويقول :

— تلك هى النزهة التى طالما حلمت بها ... معك !... نعم ... أنت الآن هنا معى فى مركبي !... يا للسعادة ! ... ترى ماذا كنت تفضلين ؟ ... هذه النزهة معى فى مركب النيل ؟... أو تلك النزهة الأخرى بمفردك فى مركب الشمس ؟ ...

(٧)

أفاق المثال من سكره فى الصباح ، فوجد نفسه بثياب البارحة فى فراشه ... ففرك جبينه محاولا التذكر ... ولم يلبث أن أدرك ما حدث ... فقام وخرج باحثاً عن صديقه وخطيبته ، ليعبر لهما

عن أسفه ... أما الخطيبة فلم يكن من السهل مقابلتها فى ذلك اليوم... فقد شاهد القصر هائجاً مائجاً بالكهنة والحراس ومعدات الاحتفال... وأما الصديق فلم يجده فى الحان ولم يصادفه فى أى مكان...وخطر له آخر الأمر أن يبحث عنه فى دار له مهجورة ، فى الضفة الأخرى من النيل كان قد تركها لبعدها ، وجعل منها اليوم شبه مخزن لأخشابه وأدواته ونماذج مراكبه الشمسية ... فعبر النيل إلى تلك الدار ، ولم يكد يقترب منها ، حتى سمع شبه همس وهمهمة ومناجاة... فطرق الباب... فلم يفتح سريعاً ... فأعاد الطرق ، وانتظر وقتاً أكثر قليلا مما ينبغى فى مثل هذا الحال ، وإذا الباب يفتح بحذر ، ويطل منه رأس صديقه ، فما أن يراه حتى يتغير وجهه ... ولكنه يتماسك ويخرج إليه ، متحاشياً دعوته إلى الدخول ... وظن المثال أن هذا الاستقبال الفاتر أمر طبيعى ، بعد أن أضاع على صديقه فرصة البارحة بسكره...فبادر يقول له :

— إنى فى شدة الأسف ...

فلم يبد على الصديق أنه فهم أو تذكر ... فقد قال متسائلا ببساطة من لا يحمل مرارة ولا عتبا :

— لماذا ؟ ...

فحملق المثال فى وجه صديقه ، فلم يجد به إلا أثر القلق

والارتباك والرغبة فى غلق باب الدار والابتعاد بالضيف عن عتبته ... فقال له مازحا :

— أليس عندك هنا ما يشرب ؟ ...

فقال صانع المراكب فى شبه ارتياح :

— لا ... لا ... هذا مكان مهجور كما تعلم ... فلنذهب عنه ... فلنذهب ... لقد جئته اليوم لأحضر بعض الخشب ... فلنتقابل فى الحان الليلة ... إذا شئت ... فى الحان ... فى الحان ... إلى اللقاء ! ...

(٨)

وفى ذلك اليوم وقع فى ساحة المعبد حادث غريب .. فقد أقبل رجل من عامة الشعب يجرى ويصيح معلناً أنه شاهد بعينيه فى السماء قرصاً طائراً يشع نوراً قوياً أخضر اللون ، ما يشك فى أنه مركب الشمس الذى يحمل روح الملكة الشابة فى رحلتها السماوية... واجتمع الناس حوله واشتد اللغط... وتفاقم الجدل... وبلغ الأمر مسامع الملك ورجال الدين ... فجاءوا بالرجل واستجوبوه فأصر مؤكداً :

— رأيت بعينى !...

وجاء فرعون بكبير الكهان وسأله :

— أيمكن لمركب الشمس أن يرى فى السماء بالعين؟...

فأجاب الكاهن بلهجة قاطعة :

— مستحيل ...

— وما القول فيما يقرره هذا الرجل ؟...

— إنه كاذب أو مخدوع ... ولا يعقل أن يظهر فى السماء لأعين العامة ، المركب الذى يحمل روح تلك الملكة الشابة ... ولا تظهر قبل ذلك المراكب التى تحمل روح فرعون الكبير والدكم أو الفراعين العظام من أجدادكم ! ... هذا رجل كاذب خادع يجب أن يموت ! ...

— ألا يمكن أن يكون هذا المركب الطائر ذو النور الأخضر لأحد الآلهة ؟...

— لو كان لأحد الآلهة لرأته عيوننا نحن الكهنة لا عين رجل من عامة الشعب !...

— ولماذا لا تقول أيها الكاهن الأكبر إن سحرك استطاع آخر الأمر أن يحدث هذه الأعجوبة ...

— سحرى ؟!...

لفظها كبير الكهنة متمهلا متأملا ... أيقبل هذا التفسير مع ما فيه من فضل يغرى بالزهو أم يرفضه ؟ ... إذا قبله فقد يطالب

فيما بعد بإظهار مراكب الشمس فى السماء إظهاراً مرئياً للعيون ... وهو مالا قبل له به ... الأضمن له إذن أن يرفض ... وأن يبقى سحره فى منطقة الروح وحدها ... وعندئذ صاح :

— كلا ... كلا ... إن هذا ليس سحرى ... ولكنه سحر المتآمرين على ديننا القديم ... هذا الرجل يجب أن يموت ! ...

(٩)

وفى ساحة الموت ، وقف الرجل أمام قضاته من الكهنة يردد صائحاً :

— رأيت بعينى ! ...

فقال له القضاة :

— أتنكر الروح ؟ ...

فقال بإصرار :

— لا أنكر الروح ... ولكنى رأيت الواقع ! ...

وإن الإصرار حتى الموت له دائماً قوة السحر ، فهو يخلق أحياناً الإيمان فى النفوس ... وكان لموقف هذا الرجل الناهض من بين الشعب ليتحدى القوة الهائلة الممثلة فى فرعون والكهنة ، تأثير فى الناس ... فقد تهامست جماعة منهم مؤمنة بما يقول :

— لا شك أنه صادق ... إنهم سيقتلونه لأنه رأى ما لم

يستطيعوا هم أن يروه !...

(١٠)

مضت أيام والمثال يبحث دون جدوى عن خطيبته الوصيفة... وسأل عنها فى القصر ، فقيل له : ما من أحد رآها منذ اليوم الذى دفنت فيه مولاتها ... وليس هذا بغريب فى نظارهم من وصيفة أمينة ، يأبى عليها الوفاء أن تخدم غير مليكتها ، أو تبقى فى مكان ضمهما معاً ردحاً من الزمن ... ولكن أين ذهبت ؟ . . . وهل يطول اختفاؤها حتى عنه هو ؟ ... إنه لم يرها منذ الساعة التى تم فيها الاتفاق على اللقاء عنـــد السرداب ... ومن أجل صديقه ... وهذا الصديق أيضاً ما خطبه ؟ ... ماذا دهاه ؟... إنه يهرب منه الآن على نحو مريب ... وإن مسلكه معه كان حقاً غريباً يوم ذهب إليه فى داره المهجورة ... ما من شك فى أنه عمل على إبعاده عن تلك الدار ... لماذا ؟ ... نعم ... إنه يذكر جيداً الآن ماسمع قرب الباب ... تلك الهمهمة ... تلك المناجاة التى كان يصل همسها من الداخل... ترى من كان بالدار وقتئذ مع صديقه ؟... أهى امرأة ؟ ... يا للويل ! ... من تكون ؟ ... أتراها هى ؟ ... أتراها خانته مع الصديق ؟... لم يطق تلك الفكرة !... وعزم على أن يدهم الدار ... وقام لساعته وعبر النيـل إلى الضفة الأخرى ،

ومضى تواً إلى دار صديقه ، وطرق بابها طرقا شديداً ، فلم يجبه أحد ... فدفع الباب بعنف فانفتح ... ودخل ... فلم يجد أحداً داخل الدار ... غير أن عينيه لمحت خلف أحد المراكب المسندة إلى الحائط بابا صغيراً يؤدى إلى حجرة مفروشة ... فداف إليها وإذ هو يتسمر فى مكانه ، وقد جمد الدم فى عروقه ... فقد وجد نفسه أمام الملكة الشابة متكئة على فراش وثير ... وثاب إلى رشده بعد قليل ، وطافت برأسه الخواطر سراعا ... وأدرك ما يمكن أن يكون قد حدث ... ولكن السؤال الرهيب هو :

— من التى حملوها فى التابوت إذن ، ووضعوها فى المقبرة ؟...

ولم ينتظر جوابا ... وخرج من الدار كالمصعوق ...

(١١)

لم يدر المثال ماذا يفعل إزاء كل هذا ؟... ومشى فى الطرقات يسائل نفسه كالمخبول : من المدفونة فى قبرها ؟ ... أين اختفت خطيبته ؟... وهل بين الأمرين علاقة ؟ ... أيمكن أن تكون المدفونة هى ؟... ياللهول !... وكيف دفنت هكذا ؟... ولماذا ؟... مهما يكن من أمر فلابد من فتح المقبرة ... فالملكة ليست راقدة فيها ... يجب أن يذهب إلى فرعون وإلى الكهنة ويصيح :

— هلموا !... هلموا !... الملكة ليست فى المقبرة ... ولكنهم

سيقبضون عليه ويقولون له : كيف عرفت ؟... فماذا يجيب ؟ ...
أيدلهم على دار صديقه ويوقع به قبل أن يتبين حقيقة المدفونة ؟...
لا ... لن يفعل ذلك ... فليقل إنه رأى فى الحلم أحد الآلهة يخبره
بهذه الحقيقة ...

واتجه من الفور إلى كبير الكهان وأعلن إليه الأمر . . .
فنهض صائحاً :

— ماذا جرى اليوم ؟ ! ... كل الناس يرون الآن الآلهة
إلا نحن الكهنة ؟ ! ...

ثم التفت إلى المثال مهدداً :

— أتعرف عاقبة هذا الإدعاء والكذب ؟ ...

فلم يتردد المثال وقال باطمئنان :

— الموت ... وأنا مستعد له ، إذا اتضح كذبى ... والأمر
بسيط ... افتحوا المقبرة تعرفوا الحقيقة ...

وقبل فرعون والكهنة هذا التحدى ... وفتحت المقبرة ...
وكشف غطاء التابوت ... وإذا الجميع أمام منظر تقشعر له
الأبدان ... فقد شاهدوا أسنان امرأة برزت من بين أربطة
الوجه .. وكأنها كانت تجاهد فى تمزيقها حتى ماتت عليها ...

وجرد الجسد من لفائفه فإذا هو جسد الوصيفة ... وبهت

الجميع . . . وصاح فرعون :

ــ أين الملكة ؟ ...

وأفاق المثال من ذهوله وبجيحته وغيظه المكتوم ... وأدرك جريمة صديقه فرفع رأسه قائلا :

ــ هناك فى الضفة الأخرى .. دار صانع مراكب الشمس ...

(١٢)

فى تلك الأثناء كان صانع المراكب قد عاد إلى داره ، فوجد الباب مفتوحاً ، وعلى العتبة آثار أقدام ، فتملكه الخوف ، وخيل إليه أن أمره قد انكشف ، فأسرع وأعد مركبه ، وحمل الملكة وأزمع الرحيل والهرب ... وكان الليل قد أقبل ، فاتخذ منه ستراً ودرعاً ... واشتد فى التجديف منطلقاً بمركبه نحو الجنوب ...

(١٣)

وجاء الحراس والكهنة إلى الدار ... وفتشوها فلم يجدوا فيها أثراً لأحد ... فالتفت أحدهم إلى المثال وصفعه قائلا :

ــ أيها الكاذب ؟ ... أين الملكة ؟ ...

أنت سارقها وستلقى جزاءك ! ...

وإذا أحد الصيادين جاء يقول :

ــ أبصرت رجلا يحمل جسد امرأة فى قارب ويسرع فى

النيل نحو الجنوب ...

فانطلق الحراس والكهنة إلى مراكبهم حاملين المشاعل المضيئة فى أثر الملكة المسروقة ، وكأنه موكب النور يشيع روحها فى رحلة السماء ... وأبصروا آخر الأمر المركب الهارب ، فاشتدوا نحوه ... واستدار صانع المراكب ينظر خلفه ، فرأى القصاص يدنو منه ، وأيقن بالهلاك ... فترك المجداف ، وركع أمام الملكة الموضوعة أمامه وقال :

ــ آن لنا أن نفترق ... شكراً لك أيتها الحبيبة على ما أعطيتنى من لحظات سعادة ... ان أستبقيك طويلا هاهنا ... ولن أحول بينك وبين سمائك الأبدية ... أما أنا فإلى الظلماء التى تنتظرنى ... وداعاً ! . . .

ولثم يدها بخشوع ... ثم قام منتفضا وألقى بنفسه فى الماء ... فالتهمته التماسيح ...

(١٤)

أعيدت الملكة إلى تابوتها ... ولكن المثال أثار مشكلة حيرت الكهنة ... فقد قال فى جموع الشعب إن الوصيفة قد ارتفعت بروحها فوق مركب الشمس بدلا من الملكة ... فقدموه إلى المحاكمة ... وقال له الكاهن الأكبر :

— أتدرى ما هو عقابك ؟ ...

فقال المثال :

— أدرى ما هو أهم من عقابى ؟ ... تلك الحقيقة التى اعترفت بها أنت أيها الكاهن الأكبر . . . أتنكر أنك قمت بمراسيمك الدينية ونطقت بكلماتك السحرية نحو الجسد الذى رقد فى التابوت ؟ . . . ثم أعلنت أنه ارتفع على مركب الشمس إلى السماء الأبدية ؟... هذا الجسد كان لمن ؟... ألم يكن للوصيفة ؟...

فقال الكاهن بحدة :

— لا يمكن أن يرتفع روح الوصيفة إلى السماء ...

فقال المثال :

— إذن سحرك كان باطلا ...

فارتبك الكاهن قليلا وأطرق الكهنة من حوله حائرين . . . ذلك أن الطقوس التى أجريت إما أن تكون صحيحة وبهذا ترفع روح الوصيفة إلى السماء ، وإما أن تكون باطلة لا ترفع أحداً ... والكاهن يصر على أنها صحيحة ... وأنها رفعت بالفعل ، لأنه أعلن ذلك يوم الاحتفال بالدفن ...

فكر الكاهن ملياً ثم قال :

— إن السحر صحيح ، وقد رفع روح الملكة ، وهذا ما أعلنته

من قبل وأعلنه اليوم وأؤكده ... لأن روح الوصيفة لا يمكن أن يرفع إلى السماء على مراكب الشمس ...

فصاح المثال :

— ولم لا ؟ ...

فقال الكاهن بعنف :

— لأنها من الشعب ... ومراكب الشمس لا تحمل غير الملوك . . .

— أوَ لا يمكن لأبناء الشعب أن يرتفعوا يوماً على تلك المراكب كالملوك ؟ ...

— لا ...

فلفظ المثال صيحة ثائرة :

— هذا ظلم ! ... هذا ظلم ! ...

فارتفعت أصوات الإستنكار من الكهنة ، وتمايلوا يتهامسون ويقررون أن هذا الثائر قد فاه بأمر عظيم ؛ لا ينبغى أن يظل بعده فى الأحياء ...

وحكموا عليه بالموت ...

واجتمع الناس فى ساحة الموت ينظرون إليه ، وهو باسم الثغر ، هادىء النفس ، فذكرهم منظره بمنظر ذلك الرجل الذى

أعدم بالأمس ، لأنه رأى شيئاً أنكره الباقون ...

وقال بعض الناس لبعض ساخرين :

— إنه يريد لروح الوصيفة خطيبته أن يُحمل على مراكب الشمس التي تحمل الملوك ...

وقال البعض :

— لا تسخروا منه إذا أراد لوصيفته ذلك ... فمعنى هذا أنه يريد لنا جميعاً ذلك ! ...

— لنا جميعاً ؟ ! ...

ونظروا إليه وهو يلفظ آخر أنفاسه ، فوجدوا على فمه ابتسامة صافية رضية ، وكأنه يجيبهم مبشراً ! ...

— نعم ... ولم لا ؟ ! ...

* * *

وهكذا تنتهي هذه القصة التي لم يذكرها لنا التاريخ عنها شيئاً ... فهو قلما يخط بحروفه ونقوشه على الأحجار غير أخبار الملوك ... أما موت هذين الشهيدين من شهداء مراكب الشمس فلم ينقش خبره على حجر ، لكن نبتت بذرته في القرون والأجيال ، تروى بالدم ، وتنمو وتمتد لتثمر فصيلة الرجال المطالبين بحق الرأي وحق الشعب . . .

فهرست

